

الفضل العائش

الفضيلة

الفضيلة هي الخلق الطيب ، والخلق هو ” عادة الإرادة “
 فإذا اعتادت الإرادة شيئاً طيباً سميت هذه الصفة فضيلة ، والإنسان
 الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذي اعتاد أن يختار أن يعمل وفق
 ما تأمر به الأخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب
 واضحاً ، فالفضيلة صفة نفسية ، والواجب عمل خارجي ، وعلى
 هذا يقال : فلان أدى الواجب ولا يقال : أدى الفضيلة بل حاز
 الفضيلة .

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه فيقال : ” فضائل الأعمال “
 وليس يُعنى بها كل عمل أخلاق بل الأعمال العظيمة التي يستحق
 فاعلها الثناء الجزيل ، فلا نسمى دفع ثمن ما اشتري فضيلة ، إنما
 يسمى الإتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق في سبيله فضيلة ،
 ويشهد لهذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فإنها مأخوذة من الفضل
 وهو الزيادة — وعلى هذا المعنى تكون ” الفضيلة “ أخص من
 ” الواجب “ .

اختلاف الفضائل — تختلف قيمة الفضائل في الأمم
 اختلافا كبيرا ، فلو أننا وضعنا لأمة قائمة تتضمن الفضائل مرتبة
 حسب أهميتها لها لوجدناها تخالف ما يجب أن يوضع لأمة
 أخرى ، ذلك لأن ترتيب الفضائل في كل أمة يجب أن يتبع
 مركزها الاجتماعي وظروفها المحيطة بها ، وما يفتش فيها من أمراض
 أخلاقية ، وما اعتورها من أشكال حكومات ونحو ذلك ، فترتيب
 الفضائل في الأمة المحكومة غيره في الأمة الحاكمة ، وفي الأمة الآخذة
 بحظ وافر من المدنية غيره في الأمة البدوية ، وفي الأمة البحرية غيره
 في الأمة ساكنة الصحراء وهكذا ، فالأمة المهددة بالحروب ترى
 الشجاعة أهم فضيلة ، والأمة الآمنة المطمئنة ترى العدل خير
 فضيلة ، والأمة التي تحيا على الصناعة ترى الأمانة والاستقامة
 عماد الفضائل ، وهكذا .

ويختلف أيضا مفهوم الفضيلة الواحدة باختلاف العصور ،
 فما كان يفهم من الشجاعة عند اليونان غير ما يفهم منه في العصور
 الحديثة ، قد كادوا لا يفهمون منها إلا الصبر على تحمل الآلام
 الجسمية ، واليوم نفهم منها ما هو أعم من ذلك ، حتى إنها تشمل تعبير
 الإنسان عن رأيه من غير خشية لمن حوله ، والعدل تطور مفهومه
 تطورات عدة حسب تطور الأمم في حالتها العقلية والاجتماعية ،

والإحسان الى الفرد بالتصدق عليه قد كان يعد من أهم الفضائل في القرون الوسطى حتى وُضع موضع النقد في العصور الحديثة ، واعترض عليه بأنه لا يميز فيه بين المستحق للإحسان وغير المستحق تمييزاً يوثق به ، وبأنه يشل المحسن اليهم ، ويقعد بهم عن العمل ويميت ما في نفوسهم من شرف وإباء ، واستحسن المحدثون إنشاء جمعيات للإحسان تحسن اليها الأفراد وهي التي تتولى الإنفاق على المعوزين بعد أن تدرس حالتهم وتعرف فقرهم ، ولا تكتفى هذه الجمعيات بإعطاء المال الى المحتاجين ، بل توجد عملاً لمن لا عمل له ، وتقذ أولاد البائسين من آبائهم حتى لا ينشأوا نشأتهم ولا يصابوا بمرضهم ، فتنشئ المدارس الصناعية ، وتعلمهم علماً عملياً يكتسبون منه أقواتهم ، وقد اهتم كثير من الأمم المتمدنة بإنشاء هذه الجمعيات ، وحرمت إحسان الفرد للفرد ، وحضت على إحسان الفرد للجمعيات .

وهكذا الشأن في كثير من الفضائل ، قد هذبها رقى العقل وتقدم المدنية .

كذلك تختلف قيمة الفضائل باختلاف حالة الأفراد وأعمالهم ، ففضيلة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الأهمية بالدرجة التي لها بالنسبة للغني ، ولا الفضائل التي في الدرجة الأولى للسق هي بعينها

الفضائل التي في الدرجة الأولى للشاب، ولا فضائل المرأة مرتبة ترتيب فضائل الرجل، ولا فضائل التاجر هي نفسها فضائل العالم وهكذا — ومن الصعب على الأخلاقى التعمق في التفصيلات، وبيان الاختلافات الدقيقة بين الأشخاص التي يترتب عليها اختلاف في قيمة الفضائل .

وكل الذى نستطيع أن نقوله إن الناس جميعا — مهما اختلفوا — مطالبون بفضائل عامة من صدق وعدل ونحوهما يجب أن يتصفوا بها، وأنهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون في شيء واحد، وهو أن كلا منهم مطالب أن يضع في الدرجة الأولى من الأخلاق ما يناسب حاله ويتفق مع مركزه الاجتماعى وعمله الذى يؤديه، وإن اختلف تطبيق ذلك .

أقسام الفضيلة — بعض الفضائل يمكن أن تدخل في فضائل أشمل منها، كالأمانة، فإنها تدخل في مفهوم العدل . وكالقناعة فإنها تدخل تحت العفة، وبعض الفضائل يكون مولدا من فضيلتين أو أكثر، كالصبر فإنه ينتج من العفة والشجاعة، وكالحذر، من العفة والحكمة، فما أصول الفضائل التي هي أساس لغيرها ؟

[قد ذهب «سقراط»^(١) الى أنه « لا فضيلة إلا المعرفة » يرى بذلك أن معرفة الانسان الخير والشر تكفى وحدها لعمل الخير وتجنب الشر ، وإقدام الانسان على الشر ليس له من سبب إلا الجهل بنتائجه ، ألا ترى الانسان اذا رأى سبعا ضاريا لا يقدم على عرينه ، واذا رأى هوة سحيقة لا يتردى فيها وهكذا ، فلو علم الإنسان نتائج الشر علما جازما صحيحا لم يقدم عليه ، فكل الشرور ناشئة من الجهل ، ولو علم المرء أين الخير لعمله حتما ، وعلل ذلك بأن كل إنسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه ويكره لها الشر ، فمحال أن يفعل ما يضرها وهو عالم بضرره ، فما يصدر عن إنسان من الخطأ إنما منشؤه الجهل بما يعقب العمل من نتائج أو الشك فيها ، وعلاج الشرير أن يُعَلَّم نتائج الأعمال السيئة التي تصدر عنه علما صحيحا ، ولتعويد إنسان الخير وجعله مصدرا للفضيلة يُعَلَّم نتائج الأعمال الحسنة .

وهذا خطأ واضح فكثيرا ما نعلم الخير وتجنبه ، ونعلم الشر ونأفيه ، فمعرفة الخير ليست كافية في الحمل على فعله ، بل لا بد أن ينضم اليها ارادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم .

(١) سقراط فيلسوف يوناني شهير وهو أستاذ أفلاطون عاش من (٤٦٩ — ٣٩٩) قبل الميلاد ، وهو يعد مؤسس علم الأخلاق ، لأنه أول من حاول أن يبنى معاملات الناس على أساس علمي .

وعلى رأى « سقراط » ليست هناك فى الحقيقة إلا فضيلة واحدة وهى « المعرفة » ، وإن شئت فسمها « الحكمة » ، وليس غيرها من الفضائل كالشجاعة والعفة والعدل إلا مظهرا من مظاهرها وصادرا عنها .

ورأى « أفلاطون^(١) » أن فى الإنسان قُوى ثلاثا إذا اعتدلت نشأت عنها الفضائل ، وهذه القوى هى : القوة العاقلة ، وهذه إذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة الحكمة ، والقوة الغضبية ، وهى إذا اعتدلت نشأ عنها الشجاعة ، والقوة الشهوية أو البهيمية وهى إذا اعتدلت نشأ عنها العفة : وهذه الفضائل الثلاث باعتدالها جميعا ينشأ عنها العدل ، فالعدل لتصف به النفس عند أداء هذه القوى الثلاث وظائفها باعتدال ، وعند ما تكون متساندة بحيث تتعاون كل قوة مع أخرى . فأصول الفضائل عنده أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .

(١) أفلاطون فيلسوف يونانى عاش من سنة (٤٢٧ - ٣٢٧) قبل الميلاد

وهو أستاذ أرسطو ومن أكبر من كتب فى الأخلاق .

أما «أرسطو»^(١) فكان يذهب الى أن أساس الفضائل «خضوع الشهوات لحكم العقل» وبعبارة أخرى «تسليم زمام الشهوات للعقل يقودها» وهناك طرفان ينبغى تجنبهما ، الطرف الأول محاولة استئصال الشهوات ، والطرف الثانى إرخاء العنان لها والانهماك فيها ، انما الفضيلة الاعتدال ، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

وقد جر هذا القول «أرسطو» الى وضع «نظرية الأوساط» أى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، الإفراط والتفريط ، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الشرف والبخل ، والعفة بين الفجور والحمود الخ . وهناك فضائل لم تضع اللغة أسماء لطرفيها الرذيلين ، ولكن هذا لا ينفى أن الفضيلة فى هذه الحالة أيضا وسط بين رذيلتين .

وقد اعترض على هذه النظرية : بأن هناك كثيرا من الفضائل لا يظهر فيها أنها وسط بين رذيلتين كالصدق والعدل ، فليس هناك إلا صدق وكذب ، وظلم وعدل .

(١) أرسطو أو أرسططاليس أعظم فلاسفة اليونان عاش من سنة (٣٨٤ - ٣٢٢) ق م ويلقب بالمعلم الأول ، لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه ، وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنه الاسكندر المقدونى فعليه ثلاث سنين ، وله كتب كثيرة فى فروع العلم المختلفة .

وبأن بعض الفضائل ليس في وسط الرذيلتين، فإن الشجاعة ليست على بعدين متساويين من التهور والحبس، بل هي أقرب الى التهور، وكذلك الكرم أقرب الى الإسراف منه الى البخل [.

وأتبع بعض المحدثين طريقة أخرى في تقسيم الفضائل، فقالوا : إن الفضائل إما فضائل شخصية، كضبط النفس وتهذيبها، وإما فضائل اجتماعية كالعدل، فالفضائل الشخصية هي الفضائل التي تنظم حياة الفرد، وتجعل ملكاته وقواه في حالة تعادل وورق، وأما الفضائل الاجتماعية فهي الفضائل التي تجعل الإنسان في وفاق مع من حوله من الناس وترقى شئونهم، نعم ان النوعين من الفضائل يتوقف كل منهما على الآخر، فإنه اذا انعدمت الفضائل الشخصية لا يمكن تحصيل الخير للمجتمع، ولا سيرد في طريق رقيه، ولا إيصال الحقوق للناس، وإذا انعدمت الفضائل الاجتماعية ساءت أخلاق الفرد، ولم يستطع أن يرقى نفسه ترقية تامة، ولكن يمكن التمييز بين النوعين بسهولة .

طرق غرس الفضائل — للفضائل وسائل مختلفة

تعين على غرسها، نذكر هنا أهمها .

(١) فأقول ذلك تكوين العادات الصالحة في الطفل منذ صغره، وذلك عمل الآباء في بيوتهم، والمدرسين في المدارس، وخصوصا المدارس الأولى، فهم بالزامهم الطفل أن يكرر عملا صالحا يصبح عادة له، كتعويده النظافة وقول الصدق والطاعة ونحو ذلك، وإذا تأصلت هذه العادات أصبح لها من السلطان عليه ما يقرب من الطبيعة التي خلق عليها الإنسان، ولذلك قالوا: « العادة طبيعة ثانية » وبعد أن ينشأ الناشئ وينمو عقله يصبح تكوين العادات الصالحة موكولا إليه هو، وهو المكلف بها والمسئول عنها، فإذا عُني بنا آباؤنا ومربونا في صغرنا، وعُنيّا بأنفسنا في شبابتنا بتكوين العادات الصالحة عُنيت هذه العادات بنا في بقية حياتنا، وجنينا من ورائها ربنا عظيما، فنحن كالمصور يعمل صورة من جبس لين لا يلبث بعد أن يتصلب، فإن أعتنى بالصورة وجعلها كانت — مدة بقاءها — زينة تسر الناظرين، وإن لم يعن بها وخرجت مشوهة جمدت على شكلها وكانت غصة للرائين .

والإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الأرض، فطريقته في معيشته تعتمد على عاداته، بل هو سعيد أو شقي بالعادة، أمين أو خائن بالعادة، شجاع أو جبان بالعادة، فإذا عُني بنا في صغرنا ربنا كثيرا في حياتنا .

(٢) ومما يعين على غرس الفضائل «القدوة الصالحة» ،

لأنها تثير الشعور، وتحجى الضمير ، وتكون القدوة بأمور :

(١) الصداقة، فالإنسان يقترب جد القرب من أخلاق من

يصادق، وكما قال بعضهم : «خبرنى من تصادق أخبرك من أنت»

وتقليد الصديق لصديقه ظاهر في نواح مختلفة — في القول — فنحن

نبدأ نتكلم بالألفاظ التى يتكلم بها الصديق ، فإن كانت سيئة بذية

شعرنا فى أول الأمر بكرهيتها والاشمئزاز منها ، ثم نتعود سماعها

بتكررها على آذاننا ، ولا نشعر بما كنا نشعر به من اشمئزاز ، ثم لانلبث

أن نتطق بها كما ينطق صديقنا ، كذلك — فى الفعل — فنحن

نعمل أعمال أصدقائنا بحكم ما فىنا من ميل الى التقليد ، ونسخها

كما ننسخ صفحة أماننا ، بل نحن نقاد أصدقاءنا فى كثير من أعمالهم

من غير شعورنا ، فالكلمات التى نسمعها منهم والأعمال التى تصدر

عنهم نحفظ فى أذهاننا ، ثم تبعثنا على العمل على وفقها ولو لم

نتعمد ذلك .

والصديق يؤثر فى صديقه خيرا كان أو شرا ، فالصديق السيئ

ينضح أفكارا سيئة وأقوالا سيئة وذوقا سيئا يتشربها صديقه ،

والصديق الصالح ينضح أفكارا صالحة وأقوالا نقية وذوقا طاهرا

يتأثر بها صديقه .

كل هذا يوجب علينا أن نغني كل العناية بتخير الأصدقاء ،
وأن نفرّ من الصديق السيء كما نفرّ من المحموم خشية العدوى ،
ونعده خطرا يتهدد أخلاقنا ، نهرب من مجلسه ، ونهرب من سماع
قوله ، ونهرب من رؤية عمله ، لأن الشر الذي يصدر منه يعلق بنا .

(ب) كذلك — من القدوة الصالحة التي تعين على الفضيلة
سير الأبطال ورجال الأخلاق ، فالقراءة في كتب تراجم العظماء
وقصصهم وأعمالهم في حياتهم يودع في أذهاننا ذخيرة نقلدها
في أعمالنا ، وكما أن كثيرين ممن أجزموا كان سبب إجرامهم قراءة
رواية لص أو مشهد سينما أو نحو ذلك ، كذلك كثير من العظماء إنما
كانوا عظماء برؤيتهم القدوة الصالحة وتبّعهم لسيرة بطل رأوه
أقرب إلى نفوسهم ، فعرفوا تفاصيل حياته ، فكانت منبعاً لعظمتهم .

الحياة الأخلاقية حياة تأثر وتأثير ، فكل إنسان يتأثر بمن حوله
ويؤثر فيمن حوله ، كالشيء الحار والبارد ، فإنهما إذا تلامسا
اكتسب الحار برودة والبارد حرارة ، فيجب أن نغني بهاتين الناحيتين ،
فمن ناحية التأثير يجب ألا نختلط إلا بمن يفيدنا التأثيرهم ، ومن
ناحية التأثير يجب أن نكون قدوة صالحة لأصدقائنا والذين
يعاملوننا ، ونعلم أن عملنا الشر ليس مقصورا علينا ، بل سيسهل

لآخرين أن يعملوا الشرّ مثلنا، وأن يكون مثلنا الأعلى أن لو عرضت حياتنا بجميع دخالها لم يجد الناس فيها إلا خرا يُتَحَدَّى .

(٣) كذلك مما يعين على غرس الفضائل دراسة علم الأخلاق ، فكل علم يمنح دارسه عينا ناقدة في دائرة الأشياء التي يبحث عنها ، وكذلك الشأن في علم الأخلاق ، فدارسه أقدر على نقد الأعمال التي تعرض عليه وتقويمها تقويما مستقلا غير خاضع الى إلف الناس وتقاليدهم ، بل هو يستمد آراءه من نظريات العلم وقواعده ومقاييسه ، وهذا يعينه على أن يكون فاضلا .

وكثير من العلوم كالرياضة والطبيعة وتقويم البلدان الغرض منها مقصور على معرفة نظرياتها وقواعدها ، أما علم الأخلاق فله غرض أسمى وهو التأثير في ارادتنا وهدايتها ، وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصيغ أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة ، ونحصل خيرا وكائنا ، ومنفعة الناس وخيرهم ، فهو ينير السبيل أمام الإرادة ، ويشجعها على عمل الخير وينبسطها عن فعل الشر .

فعلم الأخلاق لا يفيدنا ما لم تكن لنا ارادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيها .



عادات صالحة نعتادها من صغرنا . وقدوة حسنة تحيي ضمائرنا ،
من أصدقاء متقين ، وكتب مختارة تشرح سِير الأبطال وعمل
الصالحين ، ودراسة لعلم الأخلاق تشحذ ذهننا لمعرفة الخير والشر ،
وتستحث ارادتنا للعمل على وفقه ، كل هذه أكبر ما يعين على
غرس الفضائل في النفوس .

ولسنا نستطيع عد الفضائل جميعها ، والكلام على كل منها
تفصيلا ، لذلك نختار بعض الفضائل الهامة ونشرحها .

الصدق

هو أن يخبر الإنسان بما يعتقد أنه الحق ، وليس الاخبار مقصورة على القول ، بل قد يكون بالفعل ، كالإشارة باليد وهز الرأس ونحوهما ، وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل ، فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يؤنب على ارتكابها ثم سكت فقد كذب ، ومن الكذب المبالغة في القول مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة ، كما إذا بالغ إنسان في وصف شيء بالعظم أو الكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته .

ومن الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر بعضها إذا كان ذكر ما حذف يجعل لما ذكر لونا خاصا .

وهناك طريقة واحدة للصدق وهو « أن يقول الإنسان الحق كل الحق ، لا شيء غير الحق » .

وإنما كان الصدق فضيلة لأنه أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات ، ولولاه ما بقى مجتمع ، ذلك لأنه لا بد للمجتمع من أن يتفاهم أفراداه بعضهم مع بعض ، ومن غير التفاهم لا يمكن أن

يتعاونوا، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذي لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان ما في نفسه من الحقائق الى الآخرين ، وهذا هو الصدق .

يتجلى لك ذلك في المجتمعات الصغيرة كالأسرة والمدرسة ، فكلاهما لا يبقى إلا بالصدق ، فلو كذب الطلبة في كل ما يتكلمون ، وكذب عليهم مدرسوهم في كل ما يعلمونهم ويحدثونهم ما بقيت المدرسة ، وكذلك البيت - وإذا كان المجتمع لا يمكن أن يبقى اذا كان كل ما يتكلم فيه كذبا كان من الواضح أن يتضرر بقدر ما فيه من الكذب ، فقد يبقى اذا غلب فيه الصدق على الكذب ولكنه يكون فاسدا منحطا .

وبذلك على ضرورة الصدق أن أغلب المعلومات التي وصلت الينا بالسمع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليها يعتمد الإنسان في معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالا ، ولما وصل الينا من العلم إلا شيء قليل ، وهو ما يمكننا أن نجربه بأنفسنا . وهو لا يغني في الحياة .

ومن أجل هذا عُد الصدق أساسا من أسس الفضائل ، وجعل عنوانا لرق الأمم وانحطاطها .

ومما يشاهد في شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تستوجب عدة كذبات لتغطيتها ، ذلك لأن الكاذب يخلق في الدنيا بكذبه ما لم يكن ، يخلق خيالا لا يتفق مع الواقع ، وقد يضطره هذا الخيال الذي خلقه أن يكذب كثيرا ليوفق بين الواقع والخيال ومحال ذلك .

ولا يزال الانسان يكذب حتى يفقد ثقة الناس به وتصديقهم له حتى فيما هو صادق فيه ، كما روى عن «أرسطو» أنه سئل ما ضرر الكذب قال : (ألا يثق الناس بقولك حين تصدق) وكل إنسان في هذه الدنيا في حاجة شديدة الى ثقة الناس به سواء كان تاجرا أو طبيا أو مدرسا أو محترفا حرفة ، فمن فقد ثقة الناس به فقد حُرم خيرا عظيما .

وكما يكذب الانسان على غيره كصاحبه وأخيه يكذب على نفسه ، وكثيرا ما يكون ذلك ، كمن يحاول أن يقنع نفسه بأنه بذل ما في وسعه لأداء ما يجب عليه ، وهو في الحقيقة لم يفعل ذلك ، وكما يحصل كثيرا من محاولة المرء أن يخلق لنفسه الأعذار عن كسبه أو بخله أو قسوته أو جبنه غشا لنفسه وخداعا ، وصرفا لها عن الحق ، وقد يغلو المرء في هذا الأمر حتى يصير عادة له ، وحتى لا يستطيع أن يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب .

وهناك أنواع من الكذب قد وضعت لها أسماء خاصة :
 كالتفاق ، وهو أن يُظهر الإنسان غير ما يبطن ، اشتقته العرب من
 النَّافِقَاء وهو إحدى حِجَرَةِ الْيَرْبُوع ، يخفيها ويظهر غيرها ليلجأ إليها
 عند الحاجة ، ومن هذا سُمي الرجل الذي يظهر الإيمان ويبطن
 الكفر منافقا ، فهو كذب عملي ، ومن هذا النوع أيضا من يظهر
 الصداقة ويبطن العداة ، وكل من يظهر بمظهر ينافي حقيقته
 منافق مذموم .

وكالمُلق أو التملق وهو أن تمدح آخر بما لا تعتقده فيه
 لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تتال منه منفعة أو نحو ذلك .

وضد النفاق والملق الصراحة ، وهي أن نفتح قلوبنا لمن
 نحاطبهم ، وأن نصدق في التعبير عما تكنه ضمائرنا — والكلمة
 مأخوذة من قولهم : «لبن صريح» إذا ذهب رغوته وكان خالصا ،
 فالصريح من الناس من يخلص من الغش ويظهر لمن يتحدث حقيقته
 ما في نفسه .

وقد يخطئ قوم في فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضي أن
 يقول الإنسان كل حق لكل إنسان . وهذا ليس بصحيح ، فهناك
 مجال للقول ومجال للسكوت . وليس من الصراحة أن تجرح

إحساس الناس وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو الى ذلك ،
أو أن يتحدث الطبيب الناس بأمراض من يعالجهم من الأسر اذا
كان ذكر ذلك يسيئهم ، كما أنه ليس من الصراحة أن تفخر
بأعمالك ، أو تفشى ما تعرفه من أسرار نفسك أو بيتك ، أو جيرانك
أو أصدفائك ، ولو كان ما تحدث به حقاً ، وإنما الصراحة ألا تقول
— اذا قلت — إلا الحق ، ولكن لا تقوله إلا لمن له الحق أن يعرفه .

ومن ضروب الكذب المقنوت «خلف الوعد» فمن وعد آخر
وعدا وفي نيته عند وعده ألا يفى فقد كذب . وكذلك من كان
في نيته الوفاء ثم أخلف لا لئذ أو لعذر يستطيع التغلب عليه ،
في خلف الوعد إضرار بالموعد كإضاعة وقته أو إيجاد أمل كاذب
عنده أو نحو ذلك — والوعد دين ، فكما يجب وفاء الديون يجب وفاء
الوعد ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لا يعد الإنسان وعدا إلا وفي .

ولا يحق لإنسان بحال من الأحوال أن يفتح على نفسه باب
الكذب ، بل ينبغي أن يلتزم الصدق في جميع أقواله وأعماله — ولنا
نكر أن التزم الإنسان الصدق في كل ما يقول وينفعل يستلزم مشقة
كبيرة ، ويحتاج الى عناء ورياضة نفس وصبر وشجاعة ، ذلك لأنه
قد يعرض للإنسان في حياته اليومية مسائل دقيقة رى فيها قصار

النظر أن الكذب أنفع ، وأنه لا مفتر منه ، ونحن نورد لك أمثلة من أقواها وبنين حجّتهم في الكذب ثم نبين وجه الخطأ فيها .

(١) ناشئ ابتدأ يتعلم فن الشعر عرض عليك قصيدة له لم تستحسنها . فهل تصدق وتقول : إنها قصيدة سقيمة المعاني ، ظاهر فيها التكلف سخيفة النسيج ، وحينئذ تكون قد آلمته وجبّهته ، وقد يكون قولك سببا في تركه الشعر مع أنه لو شجّع لصار شاعرا مجيدا ، أو خير أن تكذب وتقول : إنها قصيدة جميلة فتدخل على قلبه السرور ، وتشجعه على السير في طريقه حتى يبلغ غايته .

والجواب أن هنالك مندوحة عن الكذب ، فإن المسئول اذا كان لا يجيد الشعر ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق : ” لست من الشعر بالمنزلة التي تخول لي الحكم “ فإن كان يجيد أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديئه فليستحسن من الأبيات ما هو حسن في نظره ، ولينتقد بلطف وأدب مواضع النقد عنده ، ويرشده الى طريقة التخلص من عيوبه ، فهذا صدق لا يؤلم ، وفيه من الفائدة ما ليس للدح الصرف الكاذب ، إنما يؤلم النفس احتقار الشيء جملة ، وأن يقال الصدق بنخشونة وفظاظة ، أما النقد المؤدب فأشهى الى نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوق .

(٢) الكذب في الحروب ، فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للإيقاع بها ، كأن تقول : إنها ستهاجمها من جهة لا تريدها ، أو تشرع بالفعل في الهجوم من ناحية وفي عزيمتها الهجوم من ناحية أخرى . تريد بذلك التعمية عليها ، فهل يصح أن نلزمها الصدق فنضيق عليها النصر مع أن الحرب خُدعة ؟

والجواب أن الكذب في الحروب ليس كذبا في الحقيقة ، لأن الأمة بإعلانها الحرب على أمة أخرى قد أعلنتها بالافتقار بينهما ، وحيث لا تفاهم لا كذب ، لأن معنى إعلانها الحرب أنها ستفعل معها ما تستطيع من الإيقاع بها ولو بالخدعة ، فمثلها مثل من قال لآخر : ” سأقص عليك خبرا كاذبا ” ثم قصه عليه ، فليس هذا بكذب لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فإن اعتقد السامع صدق الخبر فاللوم عليه .

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث كثيرا ، يكون لأُمّ ولد مرض بالسل مثلا ، وهي التي تمرضه وتعني بشئونه ، وكان قد مرض لها ولد من قبل بذلك المرض ومات ، استدعت الطبيب ففحصه وعرف مرضه فسألته : هل هو مصاب بالسل ؟ سألته وهي مرتبكة مرتجفة تخشى أن يكون الجواب نعم ، أفليس من الحكمة أن

يقول الطبيب : إنها "نزلة شعبية" حتى تسترد قوتها وتعفى بالولد .
وهو أشد ما يكون حاجة الى عنايتها . أو يقول الحق فتفقد قواها ،
وترتبك في تمرّض ابنها ، فيثقل المرض عليه ويسرع ذلك
الى موته ؟

والجواب أن الناظر اذا قصر نظره على هذه الحادثة في وقتها
رأى أن الكذب قد يكون واجبا ، ولكنه إذا وسّع نظره رأى أن
الأم ستعلم أن مرض الولد كان السل لا النزلة الشعبية ، وأن
الطبيب قد كذب عليها رحمة بها ، وسيعلم الناس ذلك فلا يثقون
بقوله مهما أكد لهم عن المرض ، ولو علم الناس أن الأطباء جميعا
يتبعون هذه الطريقة لفقدوا الثقة بهم ، فهذا الكذب قد أضاع
معاني اللغة ، وأزال الثقة بين الناس ، وينبغي للإنسان عند الحكم
على شيء أن يوسع نظره ليرى ما يترتب عليه من الاضرار في المستقبل
القريب والبعيد .

ومع هذا فانا نوجب على الطبيب أن يتخير الألفاظ التي يستعملها
لأداء الخبر . وأن يفتح على المريض وأهله باب الأمل بالقدر
الذي يعتقد ، ولكن لا يحيد عن الصدق .

على أنه إذا كان الصدق قد يُودى بحياة بعض الأفراد، والكذب
ينجيهم، — وإن كنا لم نعثر في حياتنا اليومية على شيء من هذا —
فلم لا نضحى بهذه الأنفس القليلة في سبيل الحق، وفي سبيل
المحافظة على معاني اللغة، وثقة الناس بعضهم ببعض، وهي كلها
ركن عظيم من أركان العمران؟ إذا كان من الصواب أن نضحى
بآلاف النفوس للمحافظة على مملكة أفلا يكون من الحق أن نضحى
بنفوس معدودة، ونحتمل أضرارا محدودة، للمحافظة على الحق؟
فلندع هذا النوع من الجدل؛ ولنلزم أنفسنا بقول الحق،
كل الحق، في كل حال.

الشجاعة

الشجاعة هي مواجهة الآلام أو الخطر عند الحاجة في ثبات ، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذى يرى النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها في ثبات رجل شجاع ، وما دام الإنسان يعمل في موقفه خير ما يعمل فهو شجاع ، فالقائد الذى يقف في خط النار فيرتعش ، ويخاف أن ينزل به الموت ، ثم يضبط نفسه ، ويؤدى عمله كما ينبغى قائد شجاع ، بل هو شجاع أيضا اذا رأى أن خير عمل يعمل به أن يتجنب الخطر ، وأن الواجب يقضى عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر ، فإن هو أوضاع في موقفه رشده ، أو ترك موقفا يجب أن يقفه ، أو فر بجنوده من خطر كان عليه أن يواجهه ، فهو جبان .

فليست الشجاعة تعتمد على الإقدام والإحجام ، ولا على الخوف وعدمه ، إنما تعتمد على ضبط النفس وعمل ما ينبغى ، فإن ضبط الشخص نفسه ، وعمل ما يجب أن يعمل في مثل موقفه رغم خطر أمامه ، ورغم ما يشعر به من خوف ، فهو شجاع ، وإلا فلا .

وليس بالمحمود أن يتجرد الانسان من كل خوف ، فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند إمضاء عقد سياسى مثلا أو إنهاء أمر خطير فضيلة ، إذ هو يحمله على الروية حتى يختمر رأيه ، وفضيلة أن يخاف الإنسان من تلم عرضه وشرفه ، فليس بشجاع من يدخل الحانة ويشرب جهارا ، أو يقامر على ملأ من الناس غير هيّاب ولا وجل ، فذلك ضعف فى الشعور لا شجاعة .

إنما الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الإنسان فى الخوف ، أو يهول فى الشئ الخوف ، فمثلا كل إنسان عرضة لكَلْب كَلْب يعضه ، أو سلك ترام يصعقه ، أو سيارة أو قطار يدهمه ، أو نار تشب فى بيته ، أو مكروه ينال منه ، كل هذه الأشياء تخيف ، ولكن الجبان يبالغ فى الخوف منها ، ويخشى جد الخشية من وقوعها ، ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل ، فلا يركب مركبا — مثلا — خوف أن يغرق به ، ولا يرحل عن وطنه اذا لم يجد عملا خوف أن يدركه الموت ، ولكن الشجاع لا يفكر كثيرا فى احتمال الشر ، ثم اذا وقع لم يَطْرُ قلبه شَعَاعًا ، بل يصبر له ، ويتحمله فى ثبات ، إن مرض لا يضاعف مرضه بؤهمه ، واذا نزل به مكروه قابله بجأش رابط تخفف من شدته .

وعلى الجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذى لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه ، ولا بالجبان الذى يخاف مما لا يخاف منه .

ولست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب ، بل إن كثيرا من الأعمال اليومية يحتاج الى شجاعة لاتقل عن شجاعة الجنود ، فرجال المطافئ ، والأطباء ، وعمال المناجم ، وصيادو الأسماك فى البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الأمواج ، والممرضات اللائى يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية ، وربانو السفن التجارية ، كل هؤلاء وأمثالهم شجعان يتحملون الأخطار كما يتحمل الجنود ، ويقابلون الشدائد فى صبر وثبات .

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد ، فشجاع من إذا عراه خطب لم يذهب برشده ، بل يقابله برزانة وثبات ، ويتصرف فيه بذهن حاضر ، وعقل غير مشتب ، قد يرى إنسان نارا تلتهم بيته ، أو لصا يغشى منزله ، أو قطارا يكاد يهشم رجلا ، أو سفينة أشرفت على الغرق ، فإن فقد رشده ، وأضاع صوابه ، وحرار طرفه ، ودله عقله ، ولم يدر ماذا يفعل ، كان جباناً . وإن هو ملك نفسه ، وثبت قلبه ، وتصرف فى الأمر على أحسن وجه ، كان شجاعاً حقاً . كالذى حكى عن عبد الملك بن مروان

أنه أتاها في يوم واحد خبر مقتل ابن زياد ، وهزيمة جيشه ، ودخول ابن الزبير فلسطين ، وثوران ثورة في دمشق ، ومسير ملك الروم الى الشام ، فما تزعزع ولا طاش ، وقد رأى في هذا اليوم ثابت الجنان ، غير مقطب الوجه ، ثم شغل ملك الروم بمال يؤديه اليه ، ووجه جيشا الى فلسطين فاستردّها ، وسار الى دمشق فأسكن فتقّتها .

الشجاعة الأدبية — لما تقدّم الناس في المدنية لم يكونوا في حاجة كبرى الى الشجاعة البدنية كما كانوا يحتاجون إليها أيام بداوتهم ، فظهر للشجاعة معنى جديد يسمونه الشجاعة الأدبية ، يعنون بها أن يبدي الإنسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به ، أو تقولوا عليه ، ومهما جرّ ذلك عليه من غضبٍ عظيم ، لا يخاف من تحمل ألم يصيبه في سبيل قول حق يقوله ، أو مبدأ هام ينشره ، فلورأى في مسألة غير ما يراه علماء وقته أو من حوله من الناس ، أو خالف حاكما أو عظيما ، جاهر برأيه غاضبا عما يناله من الأذى ، يقول الحق بأدب وإن تألم منه الناس ، ويعترف بالخطأ وإن نالته عقوبة ، ويرفض العمل بما لا يراه صوابا ولو لم يقع رفضه موقعا حسنا .

والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل قول الحق ونصرتة ، وصبروا على الآلام عشقا للحق وهياما به ، واستعذبوا طعم الرزايا تنزل بهم لأنهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم ، ومنهم الأنبياء والمرسلون والشهداء ونوابغ العلماء ، فقد أودوا في الحق فتحملوا الأذى ، وباعوا أنفسهم وأموالهم مرضاة له ، كالذي حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء إليه عمه أبو طالب ينصحه بالعدول عن دعوة الناس فقال له : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ومن هؤلاء «سقراط» الفيلسوف اليوناني ، فقد علم شبان أثينا ما وصل إليه علمه ، وبذل جهده في تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم ، فلما بلغ سن السبعين آتاهم بأنه يجحد آلهة اليونان ، ويضلل الشبان ، فحكم عليه بالإعدام ، وكان في استطاعته أن ينجو بنفسه إذا هو تعهد أن ينقطع عن التعليم ، ولكنه أصر على قول الحق وأضاع نفسه .

وفي تاريخ العرب كثير من أمثال ذلك "قَابَن رَشَد" الفيلسوف الشهير المتوفى في سنة ٥٩٥ هـ اضْطُهد من أجل اشتغاله بالفلسفة ، وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله .

”وَأَبْنُ تَيْمِيَّةَ“ أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨ هـ
أذاه اجتهاده الى مخالفة فقهاء عصره في بعض المسائل فوشوا به
الى السلطان فسجنه ، فظل يكتب الرسائل في سجنه يؤيد بها مذهبه ،
ويدحض بها حجج معارضييه .

وفي العصور الحديثة لولا أن قوما من العلماء ضحوا كثيرا
في قول الحق ما تقدم العلم والمدنية الى الحد الذي نراه ”بغاليليو“
الفلكي الايطالى (١٥٦٤ - ١٦٤٣ م) اخترع التلسكوب فرأى به
أن المجرة ليست إلا نجوما كثيرة ، وأن فى القمر جبلا وأودية كالتي
فى الأرض ، ورأى به كلف الشمس ، وكان يُعَلِّم أن الأرض تدور
حول الشمس مخالفا لتعاليم ”بَطْلِيمُوس“ القائلة بأن الأرض هى
مركز الكون ، فاضطهده من أجل ذلك بعض القسيسين ، وأمروه
بالكف عن تعاليمه ، فلم يستطع الصبر عن الحق ، فأخذ وُسْجَن
وعُذِب كثيرا من أجل تعاليم يعرفها كل تلاميذ المدارس اليوم .

”ودَارُون“ الفيلسوف الانجليزى (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) لم
يُعَذَّب كما عُذِب مَنْ قبله بسجن أو نفى أو قتل ، ولكنه عُذِب
بالانتقاد المتر من رجال عصره فتحمله ، وأبان الطريقة التى اتبعها
النبات والحيوان فى نشوئه وارتقائه ، ولم يقعد به ضعف صحته عن

البحث وراء الحقيقة ، فكان على الرغم من مرضه وألمه يُجرى التجارب ويحتهد أن يتعلم دائما أشياء جديدة عن الدنيا التي يعيش فيها ، ”وَكَا مَبَانِلًا“ الفيلسوف الايطالى — (١٥٦٨ — ١٦٣٩م) قد أغضب بعض القسيسين والأمرء بتعاليمه الجديدة ، فقد كان يقول : إننا نستطيع أن نتعلم من امتحان الأشياء التي حولنا كالأشجار والأزهار والجبال والأنهار أكثر مما نتعلمه من كتب الفلاسفة القدماء أمثال ”أرسطو“ وكان يقول : إن هناك نظاما للحكم خيرا من النظام الحاضر لا يستبد فيه الحكام بالشعب ، وقد سجن من أجل أقواله هذه ، وعذب عذابا شديدا ، واستمر في الحبس نحسا وعشرين سنة ، ثم أفرج عنه .

فواجب أن نقف بازاء الحق نصرح به وندافع عنه ونعشقه ، ونتحمل الآلام في سبيله ، ونتخذ من ذكرنا مثلا صالحا في حياتنا .

ومن هذا النوع من الشجعان من يهجر لذته وراحته ، ويتحمل الآلام ، لخير الناس وإسعادهم ، كمن يرى مرضا اجتماعيا في أمته فيخصص حياته لدراسته ومعرفة أسبابه ، ثم يتحمل المتاعب في سبيل إصلاحه ، وكأن يرى الأطفال الذين لم يتجاوزوا العاشرة يعملون في المعامل ساعات طويلة في أما كن غير صحيحة بأجر قليل ، لا يرحمهم

ولا يشفق عليهم أصحاب المعامل ورعوس الأموال ، فيشبهون ضعفاء
جهلاء يقسون على من دونهم كما قُسي عليهم ، أو يرى أولاد الشوارع
يفشون ولا علم ولا عمل فيكونون بعد مجرمين يعيشون بالأمن
ويعشون في الأرض نساذا ، أو يرى فقراء بالمون في الحياة آلاما
جسيمة يقضون أطول زمن في العمل ويسألون أقل أجر ، تشتد
مزاياهم على العمل ، ويخضعون لنظم شاقة ، يسكنون مساكن
غير صحية وهم مع ذلك يستأجرونها بأجرة باهظة إذا قيست بمساكن
الأوساط والأغنياء ، أثمان طعامهم ووقودهم وحاجاتهم أغلى مما يدفعه
الأغنياء لأنهم مضطرون إلى شراء كميات قليلة في أوقات يقل فيها
الصف ، تكثر بينهم الأمراض والوفيات ، ويشتد بهم الضيق
بجزء يعودهم عن العدل لأنهم لم يستطيعوا أن يوفرُوا شيئا من
أجورهم وقت عملهم ، بيوتهم وحاراتهم تسمت منها النفس قنطرة ،
اضطروهم الفقر إلى الازدحام في الحجرة الواحدة مع ما يفشو فيهم
من الأمراض ، تنشأ بينهم أبنائهم وبناتهم فيجدون حولهم
جوا خائفا من سكر وعريضة وتسول ومسكنة وكذب جرأ إليها الفقر
وسوء الحال ، فيخضعون لذلك مضطرين ، ويسرون سير آبائهم وهم
في ذلك مجبرون لا يخفون ، فمن رأى شيئا من ذلك أو نحوه من
الأمراض فخصص حياته لمعالجته ، وضحى بكثير من مصلحته

لمصلحة أمته ، وصبر على ما يناله من الشدائد ، وتغلب على ما يصادفه من العقبات ، كان أشجع من جندى فى خط النار .

علاج الجبن — الشجاعة والجبن ونحوهما من الفضائل والذائل تعتمد على الوراثة والتربية معا ، فنحن نرث من آبائنا بذور شجاعتهم أو جبنهم ، ولكن يجب ألا ننسى أن للتربية أثرا كبيرا ، فهى اذا كانت صالحة زادت الشجاع شجاعة ، وقلت من جبن الجبان ، واذا عولج الجبان علاجا ناجعا فقد يبرأ من مرضه ، وليس للجبن علاج واحد ، بل ينبغى أن يُنظر الى سببه ، ثم يتخذ له العلاج اللائق به ، شأن جميع الأدوية ، فقد يكون سببه الجهل بالشئ ، فالعلاج اذا العلم به ، كالذى يرى شبعا فى الظلام فيترع منه وترتعد فرائصه ، فاذا علم أنه حجر أو متاع أُنس به وزال خوفه ، ومن هذا النوع أكثر ما يخيف فى الظلام من غفارىت ونحوها .

ويتصل بهذا عدم الإلف ، فكثيرا ما يكون سبب الجبن ، فالإنسان اذا لم يأنس بالشئ ويألفه يجبن أمامه ، كالطالب الذى لم يتعود الخطابة فاذا هو حاولها تهتج صوته ، وجف ريقه ، وارتعشت أطرافه ، ومن لم يتعود غشيان المجالس ومخالطة الناس

يخاف منهم ويلجئه الجبن الى حب العزلة ، فإن هو اضطر يوما الى الاجتماع بهم علاه الحجل ، واضطربت حركاته ، وزاد ارتباكهم ، وثقل على الناس وثقلوا عليه ، وعلاج هذا الإلْف والتعود ، فلا يزال الرجل يتكلف الخطابة حتى يصير خطيبا ، والحرارة حتى يصير جريشا .

ومما يفيد في هذا الباب أن يفرض وقوع النتائج التي تكون إن وقع المكروه ثم يهونها على نفسه ، فلو تصور أنه خطب فلم يُجِد وانتقده السامعون ثم صغر هذه النتيجة وهونها تشجع ولم يجبن ، ولو قرّر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فقدّر الموت واستصغره قابل العملية بثبات وهكذا .

ومن العلاج أن ينظر الى نتائج كل من الجبن والشجاعة فإذا ظهر له أن ما يصل اليه من الخير اذا هو تشجع أكبر مما يصل اليه من الجبن استحثه ذلك على الشجاعة ، فمن جبن عن أن يرحل عن بلده لطلب رزق أو علم فليظن ير أن من المحتمل أن يصيبه مرض في رحلته أو يموت في غربته ، ولكن من المؤكد أنه ان لم يرحل ضاق رزقه ، أو قل علمه وكان جباناً حتماً ، فان ذلك النظر قد يحمله على

أن يكون شجاعاً ، لا سيما إن علم أن ليست الحياة أن ينبض قلبه ،
وياً كل في اليوم ثلاثاً ، إنما الحياة أن يعمل وينفع ، ويستفيد
ويفيد .

تذكر وقت جبنك سِير الأبطال ، وأكثر من مطالعة تاريخ
حياتهم تستشعر الشجاعة ، وتمتلئ حماسة ، وتحس بقوة تدفعك
الى العمل على مثالهم ، والسير في طريقهم .

العفة

الاعتدال - ضبط النفس

ضبط النفس - أو العفة بأوسع معانيها - هو اعتدال الميل الى اللذائذ، وخضوعه لحكم العقل ، وليس ذلك مقصورا على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضا اللذات النفسية ، كالانفعالات والعواطف ، فلا يسمى الشخص «ضابطا لنفسه» إلا اذا اعتدل في لذاته الجسمية من مأكل ونحوه ، واعتدل أيضا في انفعالاته فلم يغضب لأى داع ، ولم يندفع في السير وراء عواطفه ، كأن يحزن حيننا شديدا الى وطنه اذا نزع عنه ، أو يفرط في حزن لفقد عزيز عليه ، وكثير من الرذائل يرجع سببه الى عدم القدرة على ضبط النفس كالشراهة والدعارة والطمع والإسراف والغضب والسخط والثروة والإدمان .

تتضمن هذه الفضيلة أن يكون الإنسان سيد نفسه لا عبدا لشهوات تسيره كما تشاء .

والناس إزاء الملذات أصناف ، فمنهم من ذهب الى الزهد وقع الشهوات ، وقالوا: "ان شهوات النفس غير متناهية ، فإذا أعطاها

المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها ، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضي ، وعبد هوى لا ينتهى ، ومن كان بهذه الحال لم يُرَجَّ له صلاح ، ولم يوجد فيه فضل “ — هؤلاء يرون أن أرق أنواع الحياة الأخلاقية محاربة الشهوات ، فلا يتزوجون — مثلاً — ولا يأكلون اللحوم ، ولا يمتكنون النفس من مأكل أنيق ، أو مقعد وثير ، أو ملبس جميل ، وقد شنع «سنيكا»^(١) على من يشرب الماء مثلجاً في أيام الحر ، وقال : « قد انتزع الترف من القلوب ما كان بها من موارد الشفقة وأسباب العطف حتى صارت أشدّ برداً وقسوة من الثلج والجليد » وبالغ بعض الزهاد فلم يكتف بقمع الشهوات بل تعداها الى تعذيب النفس بالقيام في الشمس في أشدّ ساعات الحر ، والتمترغ على الرخام في الشتاء ، وهكذا ، وهذا مذهب أكثر المعتنقين له من الناقمين على الحياة ، المتشائمين من كل شيء في الوجود ، المصابين بفقر الدم ، الذين ضعفت شهواتهم لضعف جسمهم ، وقد يرى هذا الرأي أيضاً من قويت صحته وكل جسمه ، واشتدت شهواته ، ولكن كانت ارادته أشدّ وسلطانه على نفسه أقوى ، وأقوى ما يكون ذلك اذا أتى من ناحية العقيدة الدينية .

(١) سنيكا Seneca كاتب وأخلاقى وسياسى روماني عاش من سنة ٣ ق م الى سنة ٦٥ م ب م

والزاهدون أنواع : فمنهم من يرفض أن ينعم في الحياة بالما كل الشهى ونحوه لأنه يرى أن الاستمرار في طلب اللذائذ يسبب ألماً ، فتصبح النفس شريهة ، أطماعها كثيرة ، وآمالها واسعة ، وكلما نالت منها الكثير طمعت فيما هو أكثر منه ، ثم هي تتألم الآلام الشديدة لما حُرمت ، وتتجزع مع ما تنال غصصاً من الآلام ، أضف إلى ذلك أن كثرة التمتع باللذة يفقدها قيمتها ، فمن يأكل كل يوم طعاماً شها يصبح بعد مدة وهذا النوع من الأكل عنده عادى ، حتى تكون مقدار لذته منه تعادل لذة من قنع بالقليل ، يرى هؤلاء أن شعور الإنسان بأنه قادر على حرمان نفسه يرفعه فوق حوادث الزمان ، ويجعله يرى أن لا قدرة للحوادث ولا للدهر على إخضاعه ، وهذا الشعور يحثّر الإنسان من ربة الخوف — وهو شعور فيه من اللذة ما ليس في الملمات الجسمية — فهم في الحقيقة يفترون من لذة للذة أخرى أكبر منها ، هي لذة الراحة والطمانينة وعلق النفس .

هؤلاء نظرم شخصى أكثر منه اجتماعياً ، فهم يبعون لذة أنفسهم ، غاية الأمر أنهم وجدوها في الراحة وعدم الانغماس في الشهوات .

ومن الزاهدين نوع آخر أرق من هؤلاء ، زهدوا في اللذائذ لأن ذلك وسيلة إلى إسعاد الناس وراحتهم ، كما فعل عمر بن

الخطاب، لم يشأ أن يتمتع نفسه بالملذات لأنه رأى أنه إن فعل ذلك توسع الولاية ومن يسدهم أمر الأمة في البذخ والنعيم حتى يرهقوا الرعية، فزهد ليسعد الناس، ومن هذا الصنف كثير من المصلحين والعلماء الباحثين، يهجرون راحتهم ليستكشفوا ما يوفر الراحة على الناس، وهؤلاء — أيضا — في الحقيقة لم يضحوا بلذتهم، بل هم من صنف راقٍ، يحدون — في شعورهم بأنهم مصدر لإسعاد الناس — لذة قلما تعادلها لذة .

ومن الزهاد صنف يتزهد تدنياً، يتقربون الى الله بالامتناع عن التمتع بملذات الحياة — وهؤلاء نقول : ان الله تعالى شرع الشرائع لإسعاد الناس، وقد رضى عن اتباعها لأنه عمل لإسعادهم، فمن هجر لذته هو في عمل صالح يرضى الله — وبعبارة أخرى يسعد الناس — كان عمله مقبولا، وكان من الصنف الثانى، ولكن من ظن أن الله يرضى عن الزهد لأنه زهدٌ فقد أخطأ، لأنه تعالى لم يجعل تعذيب النفوس سبيلا لرضاه، وماذا ينال الله والناس ممن انقطع للعبادة وزهد في الحياة ؟ مُدح رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يقوم الليل ويصوم النهار وينقطع للعبادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن يقوم بشأنه » ؟ قالوا : كلنا قال : « كلكم خير منه » — وحقا ليس يصح لأحد أن يستحل

أن يأكل من عمل الناس ولا يعمل هو في الحياة للناس شيئاً ،
إنما يرضى الله عن هجر لذته ليسعد قومه ، وليس من العقل تحمل
الآلم لأنه ألم .

ومن الناس من يرى — على عكس هؤلاء الزداد — أن
يطلق لنفسه العنان ، ويمكنها من كل ملذات الحياة ، يرون أن
الإنسان في هذه الحياة إنما خلق ليتنعم ، ولم يمنح العقل إلا لبحث
له عن وسائل النعيم ، فهو لذلك يحب اللذائذ عبا ، وينهمك فيها
ما استطاع — وهذا ضار بالفرد وبالمجموع معا ، فلو أبحنا لكل
فرد أن يتلذذ كما يشاء ما انتظم شأن مجتمع ، ولتعارضت شهوات
الأفراد ، وكانت الفوضى المطلقة ، وإن جمعية أفرادها ليسوا أعفاء —
أعنى أنه لا تحكمهم إلا شهواتهم الجسمية — لتحمل معها بذور
الانحلال والانحطاط .

وفضيلة العفة تتطلب من الإنسان القصد في اللذائذ ، فإن
هو أفرط فانهمك في شهواته ، أو فرط فاماتها ، وبالغ في الزهد ،
فقد حاد عن سواء السبيل ، خير طريق في الحياة أن ينيل الإنسان
نفسه ملذاتها الطيبة ، ويعطيها مشتياتها ما لم تخرج عن حدود
الأخلاق ، فذلك أدعى إلى نشاطها وأقرب إلى طبيعتها ، إنما

يجب ألا نتجاوز الحدود المشروعة ، ففي داخلها من الملذات ما هو أضمن لسعادة الفرد والمجموع ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكثيرا ما يكون من المصلحة أن يمنع الإنسان نفسه مما لا بأس به حذرا مما به بأس ، كالذى حكى عن بعضهم أنه أشعل لفافة فأحس منها بلذة شديدة فكان ذلك حاملا له على ألا يدخن ، وسبب ذلك - على ما يظهر - أنه تخوف من نمو الرغبة عنده في التدخين ، وخشى شدة تسيطر العادة عليه فيما بعد ، وكان إحساسه اللذة علامة هذا الخطر فتركه .

وأشير هنا الى مبدأ الأستاذ «جيمس» القائل : بأنه يجب أن نحافظ على قوة المقاومة ، ونتبرع بعمل صغير كل يوم ، لا لسبب إلا مخالفة النفس والهوى ، فان ذلك يعيننا على مقاومة المصائب اذا حان حينها .

فليس يقتضى ضبط النفس القضاء على الرغبات والشهوات ، وإنما يقتضى تهذيبها واعتدالها ، وجعلها خاضعة لحكم العقل ، ففي القضاء على الشهوات قضاء على الشخص وعلى النوع ، وفي اعتدالها سعادتهما جميعا .

أهم أنواع ضبط النفس :

(١) ضبط النفس عن الغضب ، فمذموم أن يكون الإنسان سريع الغضب يخرج عن عقله للكلمة الصغيرة والسبب الحقير ، وليس الغضب بالخطأ دائماً ، فهناك حالات يمدح فيها ، فلو رأيت شاباً يعذب صغيراً لم يحن جناية ، أو ضعيفاً لا يستحق عذاباً ، أو حيواناً لا حول له ولا حيلة ، فحق أن تغضب ، كذلك طبعي أن يغضب الإنسان إذا عومل معاملة لا تتفق وشرفه أو نحو ذلك ، فلا بد له من الغضب ليدراً عن نفسه أو غيره الظلم .

ولكن هذه الحالات قليلة إذا قيست بغيرها من حالات الغضب ، فأكثر حالاته رذيلة مذمومة ، ولذلك عد رذيلة ، وعد ضبط النفس عنه فضيلة .

وأكثر ما يدفع الإنسان إلى الغضب أثرته وحبه الشديد لنفسه ، وكثرة التفكير في حقوقه ، فيتخيل فيما لا يغضب احتقاراً له ونيلاً منه ، وكثيراً ما يستسلم لغضبه فلا يعي ما يقول ، ولا يعقل ما يفعل ، ويظن أنه بذلك يظهر بمظهر المحترم لنفسه ، المحافظ على كرامتها ، وهو إنما يظهر بمظهر الطائش الأحمق .

والإنسان في غضبه حاكم غير منصف ، يبالغ في الشيء ويسوؤه ، فهو كواضع على عينيه منظارا يكبر ويشوه ، وهو لا يرى وقت غضبه إلا الأغلاط ، ولذلك تراه يحكم حتى على أعز الناس عليه أحكاما قاسية ، والواجب أن تترى ونسائل أنفسنا هل نحن محقون في غضبنا ؟ أو ليس لما عمل أو قيل محمل حسن ؟ هل الشيء يغضب حقيقة بالقدر الذي أرى ؟ أو ليس لمن أغضبني حسنات كثيرة بجانب هذه الاساءة ؟

واجب ألا نستسلم للغضب ، وأن نسلم زمام انفعالاتنا لعقلنا .
 (٢) ضبط النفس عن الاسترسال في الانقباض والسخط ،
 لأن ذلك يكدّر صفو الحياة ، وفي الناس كثير من هؤلاء المتشائمين الساخطين الذين يرون أن لا أسوأ من هذا العالم ، وأن لذائذه لا تكاد تذكر بجانب آلامه ، وحامل لواء هذا المذهب في العصور الحديثة «شوبنهور» الفيلسوف الألماني (١٧٨٨ و ١٨٦٠م) —
 كان يرى أن حياة الانسان سلسلة آلام ونزاع وكفاح ، وأن هذا العالم أسوأ ما يكون ، فيه من الآلام والشروء أكثر مما فيه من اللذائذ .

وأغلب ما يكون هذا النظر عند من ضعفت صحتهم ، أو ساءت أعصابهم ، أو توالى عليهم المصائب من موت أو فقر أو نحوهما ،

فتظلم الدنيا في أعينهم، ولا يرون فيها إلا ما يؤلم، أحب الشعر اليهم أمثال شعر أبي العلاء، وخير نغمات الموسيقى عندهم ما يبعث على البكاء.

ويظهر أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن إدراك ما في العالم من ملذات، فمثلهم كمثل عُنى الألوان، الذين يدركون بعضها دون بعض، والحق أن الدنيا مملوءة بالمسرات والمؤلمات جميعا "ولولا سوء النظم الاجتماعية الحالية وفساد التربية الموجودة لكانت السعادة حظ أكثر الناس ان لم أقل كلهم".

ان الناس يخطئون في اعتقادهم أن ما يحيط بالانسان من الأمور الخارجية هي التي تجعله ساهطا أو راضيا، بأسا أو منعا — نعم ان الانسان قد يكون أقدر على السعادة في بعض الظروف دون بعض، ولكن الظروف نفسها لا تجعله سعيدا، فكثيرا ما تتوافر وسائل السعادة عند قوم وهم مع ذلك أشقياء بأنفسهم، لأنهم يخلقون من كل شىء ما يستوجب السخط، ويلتقون كل ما يرون باللون الأسود.

ان السعادة أو المسرة تعتمد على أنفسنا أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، ويجب أن يتعلم الانسان "فنّ المعيشة" وكيف يكون راضيا ولو لم يكن كل شىء حوله وفق ما يتمنى.

(٣) ضبط النفس عن الاسترسال في الشهوات الجسمية ولا سيما الخمر والنساء ، فهما شرّ ما يقع فيه الإنسان ، ويفسد عليه حياته ، ويضعف من روحانيته ، ويقلل من حرّيته ، ويسوقه الى أسوأ حياة ، وطريق الاحتياط لذلك عدم التعرّض للمغريات ، فلا يجالس المستهترين الذين لا يتحرجون من قول المهجر والحض عليه ، ولا يقرأ الروايات المثيرة ، ولا يغشى أماكن اللهو غير المؤدّب ، يصحب من قويت شخصيتهم ونظف لسانهم ، وطهر روحهم ، وأوجب ما يكون ذلك في السنّ بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين ، ففيها تنمو الشهوات وتبعث على الشرور ، فلو لم يُخصَّ الشاب بوسط صالح ورفقة مؤدّبة ، ويُعَنَّ بما يوضع في يده من كتب ، وما يشاهد من تمثيل ، وما يغشى من مجتمعات كان عرضة لأحط أنواع الشرور ، في هذه السنّ يكون المرء عرضة للتحوّل ، وأكثر من ساءت حالهم وفسدت أخلاقهم كان فسادهم في هذا الدور ، وقل أن يسقط أحد بعد أن ينجو منه .

(٤) ضبط الفكر فلا يتركه يهيم في كل واد ، ويتجول في كل مجال ، فالفكر اذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها .

وعلى الجملة فضايط نفسه كراكب الفرس الذَّلُول ، يقصد
 حيث أراد ، فيوجهها كما يشاء — ومن لم يضبط نفسه كراكب
 الصعبة ، لا يُسَيِّرُها كما يهوى ، ولا يصل الى غرضه بالسير
 كما تهوى .

في ضبط النفس حفظ الصحة ، وطمأنينة العقل ، والسعادة ،
 والحرية ، وساطان كساطان القائد على جنده ، أو الربان الماهر
 على سفينته .

العدل

العدل نوعان — نوع يوصف به الفرد فيقال إنسان عادل، ونوع يوصف به المجتمع أو الحكومة، ولتكم على كل قسم.

فالعدل في الأفراد إعطاء كل ذي حق حقه، ذلك أن كل إنسان لما كان عضواً من أعضاء الجمعية كان له الحق في التمتع بنصيب من الخير الذي ينال المجتمع، فأخذ الإنسان نصيبه لا أكثر، وأعطاه الناس حقوقهم لا أقل، هو العدل، فالغصب والسرقة ظلم لأن في كليهما أخذ ما للغير ومنعه عن حقه، والبائع الذي يكبل للشترى أو يزن أقل مما اتفقا عليه ظالم لأنه لم يعطه حقه وهكذا.

ومن أعدى أعداء العدل «التحيز» وهو ميل الإنسان لأحد المتساويين ميلاً يجعله يعطيه أكثر من حقه، وينقص الآخر حقه، فالقاضي مثلاً يجب ألا يفرق في سيره مع الخصوم بين غني وفقير، وأسود وأبيض، وذو جاه وعديم الجاه، لأن عمله إنما هو أن يطبق القانون على الأفراد، والناس أمام القانون سواء، فيجب ألا يجعل مجالا لحبه أو كرهه، ولا لغنى الخصم أو فقره، ونحو ذلك.

وكثيرا ما يتحيز الانسان لآخر ويخطئ في أحكامه لتحيزه ،
وهو مع ذلك غير شاعر بأنه متحيز، ومعتقد الانصاف فيما يرى ،
ومن أجل هذا يجب على الانسان شدة مراقبته نفسه ، وحذره
من الوقوع في الخطأ .

ويحمل على التحيز أمور :

(١) الحب ، فمن يحب إنسانا يتحيز له ، كالوالدين قلما
يريان الخطأ في عمل أولادهما .

(٢) المنفعة الشخصية ، فاحساس المرء بأن أحد الجانبين
يكسبه منفعة لا تكون في الجانب الآخر يجعله يتحيز لأحد الجانبين .

(٣) المظهر الخارجي ، فحسن منظر شخص ، وجمال هندامه ،
وفصاحة قوله ، وآدابه في الحديث كثيرا ما تبعث على التحيز وتبعد
عن العدل .

وواجب يقظة الانسان في حكمه واجتهاده ألا يتغلب عليه
هوى أو ميل يصدّه عن العدل .

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون إلهة العدل بامرأة معصوبة
العينين ، ممسكة ميزانا ذا كفتين باحدى يديها ، وسيفا باليد الأخرى ،
ويرمزون بعصب عينيها الى أن العادل ينبغي أن يعمى عن

الاعتبارات التي تجعله يتحيز من غير حق كفى وجاه، وبالميزان الى أنه يجب أن يزن لكل انسان حقه بالقسط، وبالسيف الى أنه يجب أن يلجأ الى القوة في تحقيق العدل عند الحاجة اليها، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ .

ويحمل على العدل :

(١) عدم التحيز ، فالذى ينظر الى الشيء مجردا عن الهوى أقرب الى تحقيق العدل .

(٢) توسيع النظر ورؤية المسألة من وجوهها المتعددة ، فعند الخلاف في أمر يجب على كل من المتنازعين أن ينظر الى محل النزاع من الجهة التي ينظر اليها خصمه أيضا ، والقاضى عند فصله في الخصومة يجب أن ينظر الى وجهة كل خصم .

(٣) أن يجعل مدار الحكم على الباعث للعامل على عمله لا على مظهره الخارجى ، فقد يكون ظاهر العمل سيئا ، ومستفزا للغضب ، ولكنه صادر عن باعث شريف ونية حسنة ، كالذى يقسو على ولده ليربيه .

والمجتمع العادل هو المجتمع الذي له من النظم والقوانين ما يسهل لكل فرد من أفراده أن يرقى نفسه على قدر استعداداته ، فلا يكون المجتمع عادلا حتى تتوفر لكل طائفة من الناس وسائل رقيهم ، ففي الأمة مثلا طائفة من التجار يحتاجون في تجارتهم الى تلغراف و بريد وسكك حديدية وهكذا ، وطائفة من الناشئين يحتاجون الى مدارس يتعلم فيها كل من أراد أن يتعلم ، وفيها من النظم والعلوم ما يستد حاجة كل طالب ، وطائفة من المتخصصين يحتاجون الى قضاة وقوانين تردع الجناة وتحفظ حقوق الناس وهكذا ، فاذا قامت الأمة بكل هذا حق لها أن تسمى مجتمعا عادلا ، وإلا فهي مجتمع ظالم .

والمطالب بتحقيق العدل في المجتمع كل فرد من أفراده ، فكل إنسان مطالب أن يعمل لتحقيق العدل في مجتمعه على قدر استطاعته ، فاذا احتاجت مدينة الى مستشفيات مثلا فعلى الخطيب أن يخطب حائنا على إنشاءها ، وعلى كُتّاب الجرائد أن يكتبوا ، وعلى الشعراء أن يشعروا ، وعلى الأغنياء أن يتبرعوا ، وعلى كل ذي قدرة وجاه أن يستعمل قدرته وجاهه في مساعدة المشروع ، ثم على من في يدهم تنفيذه أن ينفذوا ، فاذا لم يعمل كل فرد ما عليه فالأمة كلها آثمة ظالمة ، يقع عليها ضرر تقصيرها ، حتى الأفراد الذين أدّوا

ما عليهم ، لأن المجتمع كما قدمنا جسم عضوى ، وذلك هو شأن الجسم العضوى ، فلو أن القلب أدى ما عليه ولكن المعدة لم تؤده عوقب كل عضو في الجسم حتى القلب .

وإذ كانت حكومة كل مجتمع هي القائمة بالأمر فيه فهي لا تعد عادلة إلا إذا قامت بواجبها خير قيام ، وليس واجبها أن تحصل الخير لنفسها ، ولكن أن تحصل للمجتمع الذى تحكمه أقصى ما تستطيع أن تحصله ، وقد عبر أفلاطون عن هذا بقوله : "أن خير حكومة هي التي تضع كل فرد من الأمة في خير مكان يليق به ، ويستطيع أن تظهر فيه مواهبه ، ثم تُمدّه بما يحتاجه لأداء ما عهد اليه" وعلى هذا لا تكون الحكومة عادلة إلا إذا قامت بهذه الوظيفة ، وهو تكليف للحكومة شاق ، من المشكوك فيه أن يتحقق يوما ما ، مهما صغر المجتمع ورقبت حكومته .

وأقل من هذا تكليفا ما قاله بعضهم من أن الحكومة تُعد عادلة ما دامت لا تضع العراقيل في سبيل أفرادها ، وتركهم أحرارا يعملون ما يشاءون لترقية قواهم وملكاتهم وأعمالهم ، حسب استعدادهم ، إلا عند الضرورة القصوى ، أما إذا كان بعض أفراد الشعب يريد مثلا أن يتعلم فيجد السبيل قد سُدّت أمامه ، أو التاجر

لايستطيع أن يرقى تجارته للعقبات التي تضعها الحكومة في سبيله ،
فاذ ذاك لا يمكن أن توصف حكومة هذا الشعب بالعدل .

العدل والمساواة — كثيرا ما يقرن العدل بالمساواة ،
ويعتقد كثير من الناس أن العدل في المساواة ، والظلم في عدمها ،
وقد أخذت هذه الكلمة محلا كبيرا في العقول من عهد الثورة
الفرنسية ، فقد كان شعارها « الحرية ، المساواة ، الإخاء » ، « كل
الناس أحرار ، كل الناس متساوون ، كل الناس إخوان » .

في الدنيا وسائل كثيرة من وسائل الحياة الطيبة كالثروة التي
لا بد منها للأكل الطيب والملبس الطيب والمسكن الصالح واقتناء
الكتب النافعة ، والقدرة على الرياضة البدنية والعقلية ، ونحو ذلك ،
وهذه الثروة لا تكفى لسد مطالب كل الناس ، فهل من الحق
والعدل أن يتساوى الناس في هذه الوسائل الموجودة أو الحق
والعدل في عدم المساواة ؟ هل من العدل أن توزع الثروة من
أراض ومناجم ومتاع على الناس بالسواء فلا يكون غنى وفقير ولا
أرباب أموال وعمال ؟

تغالى قوم في ذلك ، فطلبوا المساواة في وسائل الحياة كالمال
ونحوه ، وذكروا لذلك حججا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها .

والحق أن المساواة التامة لا تمكن لأسباب، أهمها :

(١) أن الناس مختلفون بطبيعتهم في قواهم وملكاتهم، فمنهم الذكي والغني، والحاذاق والأبله، والكفء وغير الكفء، وهكذا خلقهم الله، وهكذا ولدوا، فمن الخرق أن نمكن الأغنياء والأبله وغير الأكفاء من إدارة الأعمال الواسعة، وأن نمنحهم منحا كبيرة لا يستطيعون أن يتمتعوا بها، فانا اذا منحناهم ذلك أساءوا استعمالها، ولم ينتفعوا بثمرتها، مع أننا لو أعطيناهم ضروريات العيش فحسب، وأعطينا ما زاد للكفء القادر سعد الجميع .

(٢) أن الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجحد، فالفقير اذا رأى الغنى يتمتع بأكثر مما يتمتع به هو جحد في العمل ليكون مثله، وحامل الشهادة الثانوية اذا رأى حامل الشهادة العالية يمتاز بميزات أكثر منه رغب وعمل ليكون مثله، وتمتع بعض الناس بالملبس الجميل والمسكن العظيم والسيارات الفخمة يثير في النفس حب العمل لتصل الى النتيجة المنشودة، ويبعث على الاختراع ويرغب المتراحمين في استكشاف خير الطرق لنجاح عملهم، وفي ذلك خير للانسانية على العموم، أما إن نحن سويتنا بين الناس لم نجد ما يحلهم على الجحد، وقد فطر الناس — متوحشهم ومتمدنينهم — على

أن الأمل يُسَيِّرهم ، والرغبة في عيش خير من عيشتهم هي التي تشجعهم .

ومع أن دعاة المساواة لم يصلوا الى غرضهم فقد كان لهم أثر كبير في تحسين حالة العمال ، وترقية طبقة الفقراء ، بزيادة أجورهم ، وتقليل ساعات عملهم ، وإنشاء المساكن الصحية لهم ، ونحو ذلك .

فالحق أن المساواة المطلقة في كل شيء لا يمكن ، وليست من العدل ، خصوصا بعد ظهور أن الناس مختلفون بالطبيعة — إنما هناك أشياء تعقل فيها المساواة وهي عدل وعدمها ظلم ، من ذلك :

(١) المساواة أمام القانون ، بمعنى أنه لا فرق أمامه بين غني وفقير ، وشريف وغير شريف ، كل يعاقب على جريمته اذا أجرم ، وعند وضع القانون ينبغي ألا تفضل طبقة على طبقة .

(٢) المساواة في الحقوق ، فكل إنسان له من حق الحرية وحق الحياة ونحو ذلك ما للآخر ، ليس لأحد الحق في أن يخطب أو ينشر رأيه دون الآخر ، بل الكل في ذلك سواء ، للأمر من الحق ما لأحد الرعية ، وللغنى ما للفقير .

(٣) المساواة في المناصب ، أغنى أنه ليست المناصب مقصورة على فئة خاصة ، بل كل من تتوفر فيه الصلاحية للمنصب له الحق فيه ، وليس للاعتبارات الأخرى كالغنى والجاه دخل في التفضيل .

(٤) المساواة في التصويت في الانتخاب ، فليس ذلك حق الأغنياء دون الفقراء ، وهذا النوع موضع خلاف بين العلماء ، ولم تتبع الأمم نمطا واحدا في السير عليه .

العدل والرحمة — كثيرا ما يقول الناس : « الرحمة فوق العدل » يعنون بذلك أن العمل حسب ما تقتضيه الرحمة أفضل من العمل حسب ما يقتضيه العدل — وهذا ليس بصحيح على عمومه ، بل قد يكون صوابا وقد يكون خطأ ، ونحن نذكر أمثلة مما تستعمل فيه هذه الجملة :

(١) موظف ليس كفئا ، لا يحسن عمله ، ولا يفيد الناس ، أريد الاستغناء عنه من أجل ذلك لكنه كبير في السن ، ورب أسرة وفقير ، فيقال : « الرحمة فوق العدل » أي أن العدل يقضى بالاستغناء عنه ، والرحمة تقضى ببقائه في عمله ، ولكن يجب أن نطبق في هذه المسألة العدل لا الرحمة ، فالعدل هنا فوق الرحمة ، وليست الرحمة فوق العدل ، ذلك لأن الضرر الذي ينال الناس من إهماله في عمله ،

وعجزه عن القيام به يفوق الضرر الذى ينال الموظف وأسرته ،
ولأن «المصلحة» التى يشتغل فيها ليست ملجأ للإحسان يرتزق منها
مع عدم كفايته ، بل هو يأخذ أجره فى مقابل عمله ، فمن لم يحسن
عمله لم يستحق أجره ، وكونه رب أسرة وفقيرا يجعله يستحق
الإحسان لا من «المصلحة» ولكن من معاهد الإحسان .

(٢) عامل ترام « كمسارى » تريد أن تشفق عليه فتعطيه
ثمن التذكرة ولا تأخذها منه « لأن الرحمة فوق العدل » وهذا
أيضا خطأ ، لأن ثمن التذكرة ليس ملكك ، ولكن ملك الشركة
ولا يصح أن تحسن من مال غيرك إلا برضاه ، فإذا أردت الإحسان
فأعطه من مالك الخاص بعد أن تدفع ثمن التذكرة .

(٣) لص قبض عليه وهوينتشل « محفظة » فأخذ يستعطف
الناس ويبكى ليُفرج عنه فيقولون : « الرحمة فوق العدل » وليس
ذلك بصحيح ، لأن معاقبة السارق من حق الأمة ، فلا يملك العفو
عنه بعض الأفراد .

(٤) مسجون سجن ظلماً وعدواناً يراد العفو عنه ، فيقال
« الرحمة فوق العدل » وهو خطأ أيضاً لأن العدل يقتضى كذلك
ألا يسجن ، فالرحمة والعدل يتفقان فى المطلب ، وليست الرحمة
فوق العدل .

نعم في بعض المواضع يكون استعمال الجملة صحيحة، كما إذا كان لك دين على آخر فرحمته وتركك دينك، أو أجلته حتى يوسر، فالعدل أن تأخذه والرحمة أن تتركه أو تؤجله، والرحمة فوق العدل .

وجملة القول أن الجملة صحيحة إذا كان الذي يرحم هو الذي يملك حق العدل، ثم هو يتنازل عن حقه في العدل ويرحم، أما الرحمة حيث يكون العدل من حق غيره نخطأ بين كما مثلنا .

[العدل والإحسان — كذلك كثيرا ما يقرن العدل بالإحسان، ونعني بالعدل أداء الواجب من غير تحيز، وبالإحسان الفضل في أداء الواجب والزيادة عليه، ولنضرب لذلك مثالا يتجلى فيه معنى الإحسان .

هب أن اثنين اشتركا في عمل، وكان أحدهما قويا والآخر ضعيفا، فموقف القوى مع الضعيف لا يعدو أحوالا ثلاثة :
(الأول) أن يستغل القوى مركزه، ويقول: إنني أقوى منه، فلا أنتهز فرصة ضعفه وأكلفه عمله وجزءا من عملي، فإذا لم يعمل أجبرته واتخذت ما أستطيع من الوسائل لأرغامه، وهذا موقف يمثل المبدأ المشهور «الحق للقوة» وهو مبدأ سار عليه الناس في حالة بداوتهم وهمجيتهم . ولا يزال يطبق بين المتمدنين وإن كان أقل من قبل، وهذا هو «الظلم» بعينه .

(الثانى) أن يقول القوى : إن على نصيبا من العمل ، وعلى زميلى نصيبا ، ولست أستغل قوتى فأحمل زميلى فوق نصيبه ، ولا أطبق مبدأ «الحق للقوة» ولكن أعمل واجبى لا أكثر ولا أقل ، وليعمل هو نصيبه لا أكثر ولا أقل .

وهذا الموقف هو العدل ، يتساوى فيه العاملان بأن يعمل كل واجبه .

(الثالث) أن يقول القوى : إني أستطيع بحكم قوتى أن أرغم زميلى على أن يعمل أكثر من نصيبه ، وأستطيع أن أعدل معه فأكلفه نصيبه فقط ، ولكن سأعمل فوق ذلك ، سأعمل نصيبى وأعينه على نصيبه ، سأساعده فى نصيبه لأنه أخى ، ولأنى لو كنت مكانه لتمنيت أن يعيننى زميلى ، فلاأعامله بما أحب أن أعامل به لو كنت مكانه ، ولو كنت أنا الضعيف لتمنيت أن القوى يحمل عنى بعض العبء ، فلاأحمل الآن بعض عبئه جريا مع القاعدة الذهبية «أحب لأخيك ما تحب لنفسك» .

هذا هو «الإحسان» وهو موقف أشرف من العدل ، وأعلى منه شأنًا [.

الاعتماد على النفس

من أهم الفضائل الاعتماد على النفس ، ويمكن الإنسان أن يعودها من صغره ، فلو أن الوالدين أفهما أطفالهما وجوب عنايتهم بأنفسهم في نظافة ملابسهم وانتظامها وأنهم هم المسؤولون عن ذلك كان هذا بذرة للاعتماد على النفس .

ويستطيع الوالدان أن ينميا هذه الفضيلة بالإصغاء الى ما يبديه الطفل من الأسئلة والإجابة عليها ، وإظهارهما احترام آرائه ومناقشتها ، وإبداء ما فيها من ضعف ، في لطف ، مهما كانت الأسئلة والآراء سخيفة .

إذا سلك الوالدان هذا المسلك شعر الطفل بأن له شخصية محترمة ، فثما عنده حبّ السؤال ، وحب تكوين الآراء ، ولم يصبح ببغاء يردّد فقط ما يسمع ويرى — وزاد عنده الشعور كذلك باحترام ما لغيره من شخصية ، فهو يعامل أصدقاءه وزملاءه بالطريقة التي يعامله بها أبواه ، فيصنئ للآراء المخالفة لرأيه ، وينقدها في أدب ، فيزيد ذلك في نمو شخصيته واستقلاله .

كذلك مما يمين على نمو هذه الفضيلة أن يجعل الوالدان لأولادهم «مالية خاصة» يستولون عليها، ويتصرفون فيها بحريتهم، ثم يصحح الوالدان ما ارتكب الأطفال من أخطاء فيها، وهذا هو الطريق الوحيد لتدريبهم على تحمل المسؤولية، وشعورهم بالشخصية، فيبيع الأطفال وشراؤهم، ونجاحهم أحياناً وغبنهم أحياناً، ينجبهم الخطأ في المستقبل، وأكبر برهان على ما نقول ما نرى من شبان حرّموا المال في صغرهم ثم أعطوه دفعة واحدة في شبابهم فأساءوا التصرف، ووقعوا في أضرار جسيمة، لأنهم لم يُدربوا التدريب الكافي منذ نشأتهم.

فإذا ذهب الطفل إلى المدرسة، وعوّده المعلمون الاستقلال بنفسه في بعض أعماله، كحل بعض المسائل الحسابية، والكشف في المعاجم عن الكلمات التي لم يفهمها، وتركوه ونفسه يفكر في المضكلات، ويتفهم بعض الجمل الصعبة التي تعترضه نمت عنده هذه الفضيلة.

إن من اعتاد ألا يتحمل شيئاً من العبء بل ترك غيره يحمل عنه عبأه لا يستطيع بعد السير في الحياة، فالتلميذ الذي ينتظر جاره حتى يحل المسائل ثم ينقلها منه، أو ينتظر المدرس دائماً حتى يشرح

له ما غمض عليه لا يمكن أن يأتى يوم يكون فيه متعلما حقاً ،
فالشجرة التى كُسندها دائماً على حائط لا تحمل نفسها ، إنما الشجرة
التي نمت بنفسها ، واعتمدت على ذاتها هي التي تقاوم العواصف ،
وتكون أصلح للبقاء .

والاعتماد على النفس وسيلة من وسائل الاقتصاد ، فالأم التي
تعتمد في كثير من شؤون بيتها على نفسها تقتصد كثيراً ، والرجل
الذي عود نفسه أن يصلح الأشياء الصغيرة في بيته يوفر كثيراً ، وهكذا .

كذلك هو الوسيلة الوحيدة للتعلم ، فالطفل لا يستطيع أن يتعلم
المشي إلا إذا اعتمد على نفسه وسقط ثم قام ، ولا يستطيع أحد
أن يتعلم السباحة بقراءة كتاب فيها ، إنما يتعلم ذلك باعتماده على
نفسه وفشله مرة ونجاحه أخرى ، وإنما نتعلم القراءة والكتابة
بمحاولاتنا ، فإذا اقتصرنا على أن نسمع غيرنا يقرأ ، ونظرنا غيرنا
يكتب ، فمحال أن نقرأ أو نكتب ، وهكذا الشأن في كل علم .

وليس يمكن أن يدوم الزمن الذي يحمل عنا عبأنا فيه أبائنا ،
بل لا بد من يوم نحمل فيه عبأنا وعبء غيرنا ، فكان حتماً أن نسلح
من صغرنا بالاعتماد على النفس حتى إذا جاء ذلك اليوم كنا على
استعداد لمواجهة — سيأتي اليوم الذي نكلّف فيه أن نحصل المال

تتفق منه على أنفسنا ومن نُعوّلهم ، فلا بد أن نمرّن من صغرنا على العمل الذى نعدّ أنفسنا له من تجارة أو منصب أو حرفة ، وهب أننا أغنياء ولستنا فى حاجة الى منّصب أو عمل فليس من الحق أن نعيش عائلة على العاملين ، بل الحياة نفسها عبء ثَقِيل إذا لم تُلطف بالعمل .

وطريقة إعدادنا لذلك أن نتسلح بالعلم وبالحلق ، فكل تجارة وكل منصب وكل حرفة لا يفلح صاحبها إلا إذا علم ما يتصل بها وتخلّق بما يلزمها .

كيف نربّي فضيلة الاعتماد على النفس — من خير الوسائل لذلك أن يعود المعلمون الطلبة أن يواجهوا العقبات بأنفسهم ، وأن يطلبوا منهم بذل الجهد فى حلّها ، ولا يلقوا اليهم بالمعلومات إلا بعد أن يُعمل الطلبة أذهانهم فيها ، وكلما أجهّد الطالب نفسه فى الاستفادة كان أقرب الى النجاح ، فليس أعلم الناس من كان لديه أحسن مكتبة ، لأن هذه المكتبة لا تفيدّه إلا بقدر ما يهضم منها — وهذا هو السبب فى أن أبناء الفقراء وأوساط الناس — عادة — أقرب الى النجاح من أبناء الأغنياء ، لأن الأولين تدعوهم قلة المال الى بذل الجهد ، ومحاسبتهم أنفسهم على

ما ينفقه عليهم آبائهم ، ويعملون لأنفسهم حيث يرتكن أولاد الأغنياء في كثير من شؤونهم على غيرهم .

إن الصعوبات التي يلقاها الإنسان في حياته هي التي تصقل ملكاته ، والانهماك في الترف والنعيم يورث الخمول ، وليس يُجَلَى الذهب إلا في البوتقة ، اعتبر في ذلك بالنبات ، فإن النبات الذي تربى في حديقة المنزل وبين جدرانها ، ولم يعتد العطش ، ولم يقابل العواصف ، يكون نباتا رقيق الحال لا يعيش إذا تعرض للجو الخارجي ، وعلى العكس من ذلك ما نبت في الصحراء بين الشمس القاسية ، والريح العاتية ، كذلك الناشئ إذا نشأ في مهد النعيم وعُود أن يرى كل شيء حسب ما يطلب لا يستطيع أن يكون رجلا يواجه الحياة .

يجب أن نتعود الاستقلال في الرأي فلا تقتصر على أن نكرر ما نسمع ، ونعنى بالاستقلال في الرأي أن نكون فكريا من أنفسنا ، ندرس الشيء ثم نعتقد ما يؤيدنا اليه بحثنا ولو خالفنا في ذلك غيرنا ، وقد كان ذلك دائما عمل المصلحين وكبار الرجال ، يفكرون بعقولهم لا بعقول غيرهم ، ولا يتبعون رأى غيرهم إلا إذا قام البرهان على صحته ، ثم إذا رأوا حقا قالوا به مهما كانت نتائج قول الحق .

للإعتماد على النفس لذة يشعر بها الإنسان وإن قلت نتائج ما يصدر عنه ، فكلنا يُسرّ من ربح قليل أتي ببذل الجهد ، ولا يرضى عن كثير قُدم إليه إحسانا ، والرجل يُسرُّ بيته وإن قل متاعه ، لأنه نتيجة مجهوده العزيز عليه .

النضال في الحياة هو الذي يكون المرء ، والعقبات التي يصادفها في طريقه فيبذل الجهد في تخطيها هي التي تربي نفسه ، وتعدّه لأن يكون عظيما ، والإنسان قد يتعلم من فشله أكثر مما يتعلم من نجاحه ، فلا خوف من بذل الجهد أن يعقبه فشل ما دام يفتح عينيه ويدرس التجارب التي عاناها ، ويتجنب الأخطاء في مستقبل حياته ، فقائد الجيش يتعلم كثيرا من الوقائع التي هُزم فيها ، والسياسي يتعلم كثيرا من مواقف فشله ، والعالم في دراسته يستفيد كثيرا مما ارتكب من أغلاط ، والخطيب الماهر ما كان كذلك إلا بعد أن خطب مرارا وسخر الناس منه ، وكذلك الكاتب والشاعر والفنان .

فإن أردت النجاح فاعتمد على نفسك في تعلمك وفي تجارتك وفي منصبك ، وتعلم مما أخطأت ، فإن هذا هو السبيل الوحيد للنجاح .

الطاعة

رأينا فيما سبق أن الإنسان عضو في جمعيات كثيرة ، عضو في جمعية الأسرة ، وعضو في جمعية المدرسة ، وعضو في جمعية الأمة ، وهكذا .

لكل جمعية من هذه الجمعيات قوانين لابد أن تتبع والا لا يمكن بقاؤها ، ففي الأسرة — مثلا — يجب على الوالدين أن يطعموا أولادهم ويربوهم ، وعلى الأولاد أن يتبعوا أوامر والديهم ، والا لما بقيت الأسرة ، فلو أن كل طفل في الأسرة فعل كما يهوى ، ولم يخضع لأى أمر ، ولم يُعَنِّ الوالدان أية عناية بأطفالهما ، لصارت معيشة الأسرة مستحيلة — ولو أن كل تلميذ في مدرسة سار كما يشتهى ، حضر أو لم يحضر ، وإذا حضر فعل ما يشاء ، ولم يفعل ما يشاء ، وفعل كذلك المعلمون في المدرسة ، لم تعش المدرسة أياما ، ولو أن كل جندي في الجيش اعتبر نفسه مساويا للقائد ، وعمل برأيه فسار يمينا إذا أمره القائد أن يسير شمالا ، لم يكن هذا جيشا صالحا ، وكان نصيبه الفشل لا محالة .

من هذا يتضح أن لكل جمعية من بيت ومدرسة وجيش قوانين لا يمكن أن تبقى هذه الجمعيات بدونها، وأن صلاحها بطاعة قوانينها .

والعصيان في كل مجتمع يجزأ الى الفوضى ، لأن معنى العصيان انعدام القانون ، وإقامة الفرد شهوته وهواه مقام القانون ، ومعنى هذا أنه يريد أن يتخذ الناس ارادته وهواه قانونا بدل القانون الأخلاقي ، وإرادة الفرد لا يمكن أن تقهر القانون الأخلاقي كما لا يمكن أن تقهر القانون الطبيعي ، فلو اجتمع الناس أن يغيروا طبيعة الماء وقوانين الجذب ما أمكنهم ، كذلك لا يمكنهم أن يغيروا طبائع المجتمعات وتغير ما يصاحبها وما يفسدها ، فخير وسيلة لصلاحها الجرى حسب القوانين التي تبقيا وترقيها .

بعض هذه القوانين الأخلاقية التي لا بد منها للمجتمع وضعت في القوانين الوضعية كتحرим السرقة والقتل ، وبعض القوانين كترك الحسد والكذب ترك للأفراد وضمائرهم ، وكلها قوانين أخلاقية يجب إطاعتها ، فإن إطاعتها مجلبة للخير والسعادة ، ومعصيتها مجلبة الشر والشقاء .

قد يشعر الانسان أن في إطاعة الأمر ذلة ، وأن في العصيان حرية ، وهذا خطأ في التفكير ، فإن في الطاعة الحرية ، وفي العصيان

ضياعتها ، قد يتخيل الطالب أن المعلم إنما يأمره حبا في الأمر ، ورغبة في إظهار السلطة ، وليس كذلك ، فإن الأمر العاقل إنما يأمر مراعى المصلحة العامة ، وهو مثلك خاضع لها ، وكل الفرق أنه بحكم مركزه وتجاربه تعود أن ينظر الى الخير بأحسن مما تنظر ، فالحق أن الأمر والمأمور كلاهما يطيع ، يجب ألا يأمر الأمر إلا بما فيه خير المأمورين ، أفرادا ومجتمعين ، فالمأمور لا يطيع لأجل الطاعة نفسها ، ولا الأمر يأمر لذة في الأمر ، وإنما يأمر ونطيع ليصل كل منا الى سعادته وفلاحه .

وهناك مواقف يجب ألا نطيع فيها ، كما إذا أمرنا من صديق بسرقة شيء ، أو غش في امتحان ، أو تزوير في ورق ، أو انتخاب من لا يصلح ، هنالك يكون العصيان فضيلة لأن في إطاعة هذه الأوامر وأمثالها خروجنا على الأخلاق ومخالفة للضمير ، ونحن ملزمون باتباع قوانين الأخلاق وسماع صوت الضمير ، وإنما أمرنا بالطاعة للوالدين والمعلمين وأمثالهم لأن ثقتنا بهم جعلتنا نعتقد أنهم أوسع منا نظرا ، وأصح رأيا ، فهم إذا أمرونا فإنما يأمرون بما يتفق والأخلاق ، وإذا نهوا فإنما ينهون عن المنكر والإثم ، وهم بحكم صلتهم ومركزهم — لا يؤدّون لنا إلا الخير .

والحق أن الطاعة هي الفضيلة البارزة التي تميز بين المتعديين والمتوحشين، في الأمة الممدنة يطيع الطفل أوامر أبويه علما منه بأن لا سعادة للأسرة إلا بالطاعة، والأطفال يتعلمون الطاعة في البيت فيطيعون في المدرسة، لأنهم يشعرون أن الحياة المدرسية لا تكون سعيدة إلا بالطاعة، ولا قيمة للمدرسة إلا بالطاعة، وإذا خرج من المدرسة إلى الحياة العامة فهو مطيع لقوانين البلاد، مطيع لقوانين الجمعيات التي ينتسب إليها - وعلى العكس من ذلك الأمة التي لم تأخذ بحظ وافر من المدنية، ففي كل مجتمع عصيان، في البيت، وفي المدرسة، وفي محال اللهو، وفي سماع المحاضرات، وفي الشارع، ومظهر هذا العصيان عدم النظام، فإن النظام إنما يكون بمراعاة القوانين الموضوعية والقوانين المتعارفة، والسير على وفقها من غير انتظار رقيب، ولا محاسبة إلا محاسبة الضمير.

وخير الطاعة ما صدرت عن قلب لا خوفا من عقوبة أو رغبة في مثوبة .

الانتفاع بالزمن

[الزمن كالمال، كلاهما يجب الاقتصاد فيه وتديره، وإن كان المال يمكن جمعه وادخاره لوقت الحاجة بخلاف الزمن .

قيمة كل من الزمن والمال في جودة إنفاقه وحسن استعماله ،
فالبخيل الذي لا ينفق من ماله إلا فيما يستد رمقه فقير، كن كانت
أمواله مزيفة، كذلك من لم ينفق زمنه فيما يزيد في سعادته وسعادة
الناس فعمره مزيف .

إنا نعيش في زمن محدود ، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام ، ليس
يطغى أحدهما على الآخر ، وحياة مقسمة تقسيما محدودا ، صبا
فشباب فكهولة فشيوخوخة ، ولكل قسم عمل خاص لا يليق أن
يعمل في غيره ، كالزراع اذا فات أوانه لم يصح أن يزرع في غيره ،
وحياة محدودة ، فاذا جاء الأجل فلا مفتر من الموت .

وما فات من الزمن لا يعود ، فالصبا اذا فات فات أبدا ،
والشباب اذا مر مر أبدا ، والزمن المفقود لا يعود أبدا .

واذا كان محدودا وكان لا يمكن أن يمد فيه أو يقصر ، وكانت
قيمه في حسن إنفاقه ، وجب أن نحافظ عليه ونستعمله أحسن
استعمال .

وليس للانتفاع بالزمن والمحافظة عليه إلا طريق واحد، هو أن يكون لك غرض في الحياة ترضى عنه الأخلاق فتنظم زمنك للوصول إليه .

وإنما يضع الزمن بأمرين : الأول ألا يكون للانسان غرض يسعى اليه ، قال عمر بن الخطاب : ” إني لأكره أن أرى أحداً سَهْلًا ، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة “ — فما أضيع زمن قارئ يقرأ ما يقع في يده من الكتب من غير أن يكون له غرض معين ، كبحث موضوع خاص أو دراسة مسألة خاصة — وما أتعب من يمشى في الطريق لا لغرض ، يسير من شارع لشارع ويتنقل من حانوت لآخر لا لغرض معين — وتحديد الغرض يوفر من الزمن الشيء الكثير ، ويسير الانسان في الحياة على هدى ، كلما صادفته أمور عرف كيف ينتخب منها ما يغذى غرضه ، ويتجنب ما لا يتفق معه ، ان الذين لا يحددون أغراضهم ويتركون الزمن يمر عليهم كما يمر على الجمد قلمما يصدر عنهم خير كبير أو يأتون بعمل عظيم — والانسان بلا غرض كالسفينة في البحر بلا مقصد .

ويلاحظ أن أكثر الناس عملاً أوسعهم زمناً ، ذلك لأنهم محدودو الغرض ، فهم يوجهون أعمالهم لئله ، ولا يصرفون زمنهم في التردد والاختيار ، ولا يكونون كرة في يد الظروف تلعب بهم كما

تشاء، بل هم الذين يخلقون الظروف ويتصرفون فيها حسب أغراضهم في الحياة .

الثاني مما يضيع الزمن أن يكون للإنسان غرض محدود ولكنه لا يخلص لغرضه ، فلا يجتهد للوصول اليه ، ولا يعمل ما يتفق معه .
عدم الغرض وعدم الاخلاص له هما اللذان يسرقان الزمن ويضيعان فائدته .

ومن نتائج هذين العدوين التأجيل ، وعدم الدقة في مراعاة الوقت المحدود للعمل ، وعدم المواظبة — فتأخر دقائق عن البدء المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل ، وذلك يؤدي الى إحدى نتيجتين : إما الاسراع في العمل وعدم الدقة فيه ليعوّض الزمن الفائت ، وإما التعدي على أوقات خصصت لواجبات أخرى — ومن هذا النحو تأجيل العمل الى وقت غير وقته ، فالعمل المؤجل قلما يُعْمَل ، وإذا عُمِل فقلما يعمل بإتقان كما اذا كان في وقته .

وليس يتطلب الانتفاع بالزمن أن نعمل باستمرار، وألا نترك وقتاً للراحة، وإنما يتطلب أن نستعمل أوقات الراحة والفراغ استعمالاً يجعلنا أقدر على العمل ، فاذا صرفنا وقت الفراغ في كسل ونحو لم ننتفع به ولم يفدنا في العمل ، واذا نحن صرفناه في لعب مفيد

أو في رياضة بدنية أفادنا ذلك في عملنا، وأنالنا من القوة ما نستطيع أن نخدم بها غرضنا، وكان هذا تدبيراً واقتصاداً .

الزمن هو المادة الخام للإنسان، كالخشب الخام في يد النجار والحديد الخام في يد الحداد، فكل يستطيع أن يصوغ منه حياة طيبة بجده، وحياة سيئة باهماله — ولأجل أن نجعل حياتنا قيمة يجب أن نقضى أوقاتنا فيما يتفق وأغراضنا .

ومما يعين على الانتفاع بالزمن أن نعرف — بعد تحديد الغرض — هاتين المسألتين :

(١) كيف نبتدئ العمل .

(٢) وكيف نستمر فيه حتى ننتهي منه .

لعل من أشق الأشياء معرفة الإنسان كيف يبتدئ عمله ، وكثير من الزمن يذهب سدى في التفكير في ذلك — ترى الطالب يريد مذاكرة دروسه فيفكر بهم يبدأ ، فيرى أن يبدأ بالعلوم الرياضية مثلاً ، ويشرع في ذلك ثم يستصعبها فيشرع في غيرها وهكذا ، فهو يصرف زمناً طويلاً قبل أن يبدأ بجده — أضف الى ذلك أن بدء الشيء صعب عادة لعدم المران ، أولاً لأنه انتقال من راحة لذيدة الى عمل يشق عليه .

وعلاج الأمر الأول — وهو بم يبدأ — أن يفكر — قبل العمل — في أولى الأشياء بالبدء، ويدرس وجوه الترجيح ثم يرتب ما يليه وهكذا، ثم يعزم عزمًا قويًا لا يشوبه تردد، ولا يسمح لنفسه بتغيير ما عزم عليه مهما صادفه من الصعوبات، أما من يرى أن البدء صعب عليه ويرى نفسه منصرفًا عن العمل فمما يفيد في ذلك أن يقرأ فصلاً من كتاب يشجعه على العمل، أو قطعة من الشعر تثير ميله إلى الجهد وتعيد إليه نشاطه، أو يستحضر في ذهنه نتائج الكسل والجهد، أو يتذكر أشخاصاً جدوا فنبغوا في الحياة .

فاذا بدأ فقد قطع شوطاً بعيداً للنجاح ، بعد ذلك يجب أن يستمر، وإنما يستمر بالعزم القوى الثابت ، ويشجعه على ذلك أن يكون العمل الذي يختاره في الحياة عملاً يتفق ونفسه ، أعني أن يكون عنده استعداد له وميل إليه ، يشعر منه بفائدة ولذة — فأكثر أسباب الملل ، يرجع إلى سوء اختيار العمل .

أوقات الفراغ — إن استعمال أوقات الفراغ استعمالاً حسناً من أهم مسائل الحياة التي يجب العناية بها والتفكير فيها، فإن أكثر أعمارنا تذهب سدى لأننا لا نعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ، يقضيها الأطفال في الحارات والشوارع بلا فائدة، ويقضيها الشبان والشيوخ على ”القهوات“ حيث لا هواء نقي ولا منظراً حسناً

ولا رياضة بدنية ولا فكرية — أوقات طويلة تذهب في كلام لا قيمة له ، أو لعب لا يفيد ، ولا يقصد منه إلا ”قتل الوقت“ — وأثر ذلك في أوقات العمل كبير ، فمن لم يعرف كيف يلهو لم يعرف كيف يجتد .

لعل من أهم الأسباب لذلك قلة الأندية للرياضة البدنية في الأحياء المختلفة ، ففي أكثر الأحياء لا تجد مكانا يرتاض فيه إلا الشارع ”والقهوة“ — يجب أن تكون أندية اللعب والحدائق والمكاتب في كل حي من الأحياء .

أضف الى ذلك أن جهل الأمة وعدم تربيتها تربية صحيحة يفسد ذوقها ، وهذا هو السبب في أنك تجد ”القهوة“ والروضة والمكتبة والملاعب في حي واحد ثم تجد ”القهوة“ وحدها هي العامرة بالزائرين .

وسبب ثالث وهو أن فقدان السعادة المتزلية في بيوتنا جعلنا نفر من البيوت — اتى كان يجب أن تكون أعز شيء عندنا — الى الأندية العامة نمضي فيها أنفس أوقاتنا . وسبب فقدان السعادة المتزلية يرجع في الأغلب الى انتشار الفقر وجهل الزوجين — وعدم معرفتهما ”فن الحياة“ .

التعاون

التعاون نوعان : تعاون بين أفراد الأمة الواحدة، وتعاون بين الأمم

التعاون بين أفراد الأمة الواحدة

الانسان مدين بحياته ووجوده للمجتمع ، فلولا اجتماع أبويه وتعاونهما ما وجد ولا تربى ، وليس يستطيع بعد أن ينقطع عن العالم ويتجرد من كل ما كسبه منه ، فهو حتى لو عاش في جزيرة وحده ، إنما يستعمل - في تحصيل رزقه وصيد الحيوانات التي حوله - الآلات التي علمه إياها المجتمع ، بل هو لولم يتخذ معه آلات ولا كساء فأنما يجمع ما يفتاته وينسج ما يلبسه بمعلومات هو مدين بها لمجتمعه ، فالتعاون بين الأفراد لا بد منه للحياة ، وكلما تقدم الناس في الحضارة كانت حاجتهم الى التعاون أشد ، ويظهر ذلك جليا اذا قارنت بين سكان القرى وسكان المدن ، فالفلاح يزرع ، وهو يطحن ويخبز ، ولا يستعين على ذلك الا بأهل بيته ، وقد ينسج ملابسه بنفسه من صوف غنمه ، ويربى أولاده في حقله ، وعلى الجملة فمطالب الحياة لديه بسيطة قليلة ، يقوم في أكثرها بنفسه وأهله ، أما ساكن المدن فمحتاج الى مخبز يعد له الخبز ، ولبان

يحضر له اللبن، وفي ملابسه يحتاج الى مراكب تستورد له ملابسه من الخارج، وخياط يخطها له، ومدارس تربي أولاده، وترام أو سيارات ينتقل عليها، وجرائد يقرأها، ونحو ذلك من المطالب التي يستغنى القروى عن كثير منها .

وكثرة الحاجات والمطالب، وشدة الحاجة الى التعاون. ألحأت الناس الى توزيع الأعمال، وتخصيص كل طائفة لعمل وتعاون كل طائفة من العمال مع الأخرى .

أنظر - مثلا - الى الكتاب الذى تقرأه، فقد اشترك فيه ألاف من العمال قبل أن يصل الى يدك، وتعاون عليه طوائف من الصناع كل طائفة تخصصت لعمل، فطوائف لصنع الورق قد تخصصت كل جماعة لنوع من صناعته، هؤلاء لعجيتته، وهؤلاء لصقله وهكذا، والمؤلف الذى ألف الكتاب قد اشترك فى إعدادة للتأليف جماعة كثيرون، ربوه وأعانوه وعلموه حتى استطاع أن يؤلف، وإذا نظرت الى المطابع التى طبعت الكتاب اتسع مجال النظر، فكم من الصناع اشتركوا فى صنع آلات الطباعة! وصنع الحبر، وصنع الحروف وكم من العمال صفوا الحروف ثم طبعوها! وهكذا، ولولا هذا التعاون بين طوائف العمال ما وصل الكتاب الى يدك .

وتوزيع العمل على الناس، وتخصيص كل طائفة بعمل ساعد على الاتقان، كالذى ترى فى لاعبي الكرة، فلو أنك ربت اللاعبين، وكلفت كل لاعب عملاً خاصاً، انتظم اللعب، وكان أوفى بالغرض، وعلى العكس من ذلك إذا أنت سمحت لكل لاعب أن يأتى بكل أعمال اللعب من غير تحديد .

كذلك كان هذا التوزيع من وسائل توفير الزمن وتوفير المال، فالقمح لو اشتغل أفراد فى حصاده، وآخرون فى طحنه، وطائفة ثالثة فى خبزه، أخذ زمناً أقل فى إعداده، وكان أرخص مما إذا اشغلت طائفة واحدة بالحصاد والطحن والحبز معاً .

لعلك نظرت الى آلة من الآلات الكبيرة كآلة الطباعة، أو آلة رفع المياه، أو توليد الكهرباء، وكيف رأيت أن كل آلة مركبة من أجزاء مختلفة، كل جزء له عمل خاص، فعبلات ومكابس ونحوها تتحرك حركات مختلفة، وكل جزء يتحرك حركة مناسبة للآخر، ومؤدية لتحصيل الغرض من الآلة، كذلك الناس والحياة، هم آلة كبيرة، كل يؤدى عملاً جزئياً، وكل يتعاون مع الجزء الآخر فى عمله، ولو قعد جزء هام من العمال عن العمل لوقف سير العمل جميعه، كما إذا وقف جزء هام من آلة الطباعة، وكل جماعة من

الناس صالحون لنوع من العمل قد لا يصلحون لغيره ، فالواجب أن يعملوا ما صلحوا له وأن يؤدوا عملهم على أحسن وجه ، علما بأن بقية أجزاء الأمة يتوقف عملها على عملهم ، وان لم تر ذلك عيونهم .

كثيرا ماتقرأ أو تسمع أن بعض المؤلفين وعظماء الرجال ماتوا غرقا من إهمال ربان سفينة ، أو سقط عليهم البيت من إهمال مهندس ، أو نحو ذلك ، كل هذا يدلنا على أن كل إنسان في أمة يتعدى عمله غيره من الناس ، وقد يصل أثر ذلك الى حياتهم ، وهذا يجعلنا نشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا ، ويوجب علينا أن نُخرج العمل الذي عهد الينا كأحسن ما نستطيع ، كما يوجب علينا ألا نحتقر من يعمل غير عملنا ، كل يؤدى واجبا ، وكل لا بد من عمله لسير الأمة ، فالمؤلف إنما يستطيع أن يتفرغ للتأليف لأن غيره من الناس يشتغل له في إعداد مأكله ومشربه ومأبسه ، وأنت إنما تتعلم وتتفرغ لتحصيل علمك لأن غيرك قد كفاك مؤونة السعي لتحصيل العيش ، وهكذا الناس ، كلٌ خادمٌ وكلٌ مخدومٌ ، وخير الناس أنفعهم للناس .

ولا يصح أن يسمح بالتعاون بين الأفراد أو الشركات اذا كان في ذلك ضرر بالأمة ، كما يحدث في الاحتكار ، فلواتحدت شركات

المياه والنور على رفع السعر حتى أرهقوا الشعب كان هذا ضرباً من التعاون بين هذه الشركات ، ولكنه تعاون ضار لا ترضى عنه الأخلاق ، إنما ترضى الأخلاق عن أنواع من التعاون تزيد في رقي الأمة ، كالتعاون على حماية العمال من أرباب رءوس الأموال ، وجمعيات التأليف ، ونوادي الفنون والألعاب الرياضية ، وجمعيات البر والاحسان ، وجمعيات التعليم ، فإن التعاون بين هذه الجمعيات والتقابات يزيد في سعادة الأمة ويعين على نهوضها .

التعاون بين الأمم

هناك نوع آخر من التعاون هو التعاون بين الأمم ، وذلك على ضروب شتى .

من ذلك التعاون التجاري ، فخيرات هذه الأرض قد وزعت على العالم ، فالبن والقطن والأرز والفاكهة والفضة والذهب والحديد ونحوها ليست مجموعة في بقعة واحدة ، وإنما يكثر في أمة بعض الأشياء ويقل البعض الآخر وهكذا ، فنتحتاج الأمم إلى التعاون وتبادل ما بينهم من الخيرات ، ولو أن كل أمة قصرت حياتها على ما عندها من خيرات لا نتجت في بعض الأنواع ، وأحست

بالجذب والفقير في البعض الآخر، ولم تستطع — على العموم —
ان تعيش عيشة سعيدة ، فهذا التبادل لتعاون الأمم على السعادة ،
ولذلك كان من السخافة أن تعتمد أمة الى إفتاء أمة أخرى اذ يكون
مثلها مثل تاجر يعمد الى إحراق منزل عميله .

كذلك تتعاون الأمم في نشر الحضارة ، ولعل أوضح مثل لذلك
اليابان ، فقد رأت حاجتها الى اقتباس المدنية الغربية فأرسلت
البعثات الى الممالك المختلفة لتدرس نظمها ، وكانت النتيجة أن
نظمت بحريتها على نمط البحرية الانجليزية ، وجيشها على النمط
الألماني واقتبست آلاتها من النمط الأمريكي أحيانا والانجليزى
أحيانا وهكذا .

وكذلك تتعاون الأمم في الاختراع والاستكشاف فالانجليز
أمدوا العالم بالآلات البخارية ، وأمريكا وصلت الى درجة عظيمة
في استعمال الكهرباء ، وعنها أخذ العالم ، والكيميائيون الألمان
اخترعوا كثيرا من عجائب الكيمياء ، والفرنسيون استكشفوا كثيرا
من ميكروبات الأمراض ، ونجحوا في وصف علاجها ، ولما
اتجهت الأذهان لترقية الطيران تسابقت الأمم المختلفة ، كل يدخل
عليه نوعا من التحسين ، وكل يريد الفوز والغلبة ، وكل يستفيد
مما يدخله الآخر من الإصلاح .

كذلك الشأن في العلوم والآداب والفنون ، يظهر فيلسوف كبير في أمة فتنتفع الأمم الأخرى بعلمه ، وتظهر رواية جميلة أو قطعة موسيقية ممتعة فتُمثَّل أو تَوْقَّع في الممالك الأخرى ، حتى يكاد يكون العالم أو الأديب أو الفنان عالمياً ، نتاجه للأمم كلها لا لأمة .

وتبادل الآراء نوع من التعاون ، فالأمة ترسل بعثاتها الى الأمة الأخرى تدرس آراءها وتستفيد منها ، كالذى ترى في المؤتمرات ، تُعقد لمختلف الموضوعات ، كمؤتمر التربية ، ومؤتمر التاريخ ، ومؤتمر الجغرافيا ، ونحو ذلك ، يجتمعون من عدة أمم فيتبادلون الأفكار ، ويستفيد كل مما وصل اليه بحث الآخرين .

وتتعاون الأمم على ما يصيب احداها من الكوارث ، فزلزال مسينا ، وثوران البراكين ، ونحو ذلك يُحل بالأمم أعظم المصائب ، فتتعاون الأمم على درء الشر ، وإغاثة المنكوبين ، بما يتبرعون به من مال ورجال .

ومن مظاهر هذا التعاون ما كان بين الحكومات ، فالمعاهدات بين الأمم في تبادل البريد والتلغرافات ونحو ذلك أثر من آثاره ، وكذلك تعاقد حكومات الأمم المختلفة على منع تجارة الرقيق ، ومحاولتهم الآن التعاون على نقص التسليح ، والعمل على منع الحرب ، وإحلال عصابة الأمم محل تحكيم السلاح ، وإن كان ذلك مما لا يزال أملاً يُرتجى .

خلاصة

وبعد، فهذه الفضائل وأمثالها لا يرقى الانسان في اكتسابها
إلا بأمرين :

(الأول) محاسبة النفس وسؤالها من حين الى حين في أية
فضيلة ارتقيت وفي أيها ضعفت، هل أنا اليوم أصدق مني
أمس، وإلى أية درجة نجحت في الترامي الصدق، بهذا الامتحان
ونحوه يستطيع الانسان أن يتتبع نفسه ويراقبها في سيرها .

إذا رأيت نفسك تغضب كل يوم فاجتهد أن يمتز يوم لا تغضب
فيه، ثم اجتهد أن يمتز يومان فتلاثة، فإذا نجحت في مرور أيام
لم تغضب فيها فتصدق بصدقة شكر الله على تقدمك في النجاح
في كسب هذه الفضيلة، وانتقل الى غيرها وهكذا .

(الثاني) الإرادة القوية المسيطرة على النفس، فالإرادة قابلة
للتمرن، ومثلها مثل من يبتدىء في ركوب دراجة (بسكليت) فهو في أول
أمره يخل توازنه، ولا يستطيع أن يسيطر عليها، يعلم ما يريد ولكن
لا يستطيع أن يصرفها كما يريد، وبالتدريج والمرانة تطيعه الدراجة،
وتنظم حركته، وتصبح تحت سلطته، ويسير في سهولته سيرا آليا .
وهذا هو ما ينبغي في سيطرة الانسان على نفسه، يكون لإرادته
من القوة ما تستطيع به أن توجه النفس الى ما تعتقد من خير وصواب .

*
* *

وكان تمام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الجمعة ٣ صفر
سنة ١٣٥٠ (١٩ يونيو سنة ١٩٣١) م محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

